تأملات عصرية
في الحملة الفرنسية
بقلم
محمد عرموش

تأملات عصرية

في الحملة الفرنسية

بقلم

محمد عرموش

١. مقدمة

هناك العديد من الكتب تناولت تاريخ الحملة الفرنسية علي مصر من حيث أسباب حدوثها وسرد لأحداثها وما ترتب عليها من نتائج وأعتقد أن الكتابة عن هذه الحملة لن تتوقف لأنها كانت فترة ثرية بالأحداث والأفكار والآراء بالرغم من قصرها بالنسبة لفترات أخري من تاريخ مصر ، وكلما مر الزمن وتجدد البحث يكتشف الباحثون أموراً جديدة عن الحملة وهذه الاكتشافات والكتابات لا تضيف أحداث للحملة لم تحدث ولا تحذف أيضاً أحداث قد وقعت ، بل إنها تعيد قراءة أحداث الحملة المتواترة في الكتب وتتأملها مرة أخري وتحللها بأسلوب جديد يتناسب مع روح العصر ، أما تاريخ الحملة نفسه فمكتوب وموثق في عدة كتب ككتاب عجائب الآثار للجبرتي وتاريخ الحركة القومية للرافعي وكتاب وصف مصر لعلماء الحملة أنفسهم فضلاً عن ما ورد عنها في العديد من الكتب الأخري والمذكرات كمذكرات الجنرال نابليون الذي تولي قيادة هذه الحملة ومذكرات أحد ضباط الحملة التي طُبِعت وانتشرت بعد ذلك ، وبالتالي فإن هذا الكتاب ليس سردا لأحداث الحملة ولكنه إعادة لقراءة بعض المكتوب عنها نتأمل ما جاء فيه برؤية جديدة لعلنا نستخلص ونكتشف معاً دروس جديدة ، بالإضافة لكتابة بعض وجهات النظر المختلفة ونتائج بعض الأبحاث السابقة عنها في بعض الكتب ،

فالبحث في التاريخ لا يتوقف أبداً بالرغم من عدم تغير أحداث التاريخ ولكن الذي يتغير هو رؤيتنا لهذه الأحداث وتحليلنا لها كلما مضت قافلة الزمن ، فيساعدنا ذلك علي فهم الحاضر والتخطيط للمستقبل ، وأرجو أن يفترض القارئ حسن النية فيما يجده من أخطاء أو وجهات نظر مخالفة لما يراه فباب البحث مفتوح والصواب والخطأ فيه وارد دائماً ولا أحد يملك الحقيقة المطلقة ، فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبياً وعن هذا الموضوع كتب الدكتور حسن عثمان ما ملخصه :

(– منهج البحث التاريخي هو المراحل التي يسير خلالها الباحث حتي يبلغ الحقيقة التاريخية –بقدر المستطاع– ويقدمها إلي المختصين بخاصة والقراء بعامة ، وتلخص هذه المراحل في تزويد الباحث نفسه بالثقافة اللازمة له ، ثم اختيار موضوع البحث وجمع الأصول والمصادر وإثبات صحتها وتعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه وتحري نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها ونقدها نقداً باطنياً وسلبياً وإثبات الحقائق التاريخية وتنظيمها وتركيبها والاجتهاد فيها وتعليلها وإنشاء الصيغة التاريخية ثم عرضها عرضاً تاريخياً معقولاً ، وينبغي علينا أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول إلي الحقيقة المطلقة إذ أن هذا أمر غير مستطاع لعوامل مختلفة مثل ضياع الأدلة وانطماس الآثار ومثل الأغراض والمصالح ، ومن ذا الذي يمكنه أن يعرف الحقيقة المطلقة في الماضي أو الحاضر ؟ وهل يمكن للإنسان

أن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة ؟ فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبياً ، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخاً بالمعني الصحيح في حدود إمكانه

وحينما يعكف علي دراسة التاريخ لن يجد الوقائع أو الحوادث ماثلة أمامه وعليه عندئذ أن يتجه إلي دراسة وفحص مخلفات الإنسان وآثاره من كتابات نقوش ومصنوعات ومنشآت وآثار الإنسان كلها تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ وهي تظل أبداً صامتة لا تبوح بأسرارها إلي أن يتمكن المؤرخ بالدراسة الطويلة وبالتأمل العميق من أن يحملها علي النطق وعلي التعبير عن أسرارها وخفاياها –)١

ومما سبق يتضح أن الباحث في التاريخ لا يستطيع أن يجزم بأن ما يكتبه هو الحقيقة المطلقة ولكنه جانب منها يراه طبقاً لرؤيته الخاصة ، وستظل هناك العديد من أسرار وخفايا التاريخ ستظهر يوماً ما لنتعلم منها ونستفيد ،

والله من وراء القصد وهو المستعان

محمد عرموش

٢١ يونيو ٢٠١٨

---

١) من كتاب منهج البحث التاريخي – د حسن عثمان – دار المعارف – الطبعة الثامنة

٢. الفصل الأول

بريطانيا وفرنسا ومكان المواجهة

البر أم البحر :

عندما نتأمل الصراع المسلح الذي كان دائراً بين بريطانيا وفرنسا لتحقيق المصالح الخاصة لكل منهما في الفترة التي سبقت الحملة الفرنسية علي مصر سنجد أن كلا من الدولتين الكبيرتين كانت حريصة علي أن تقع المعركة في المكان المفضل بالنسبة لها ، فكانت فرنسا هي الأقوي في البر وبريطانيا هي الأقوي في البحر ، بحكم موقعها كجزيرة فهي أمة بحرية في الأساس تهتم بالسفن والملاحة البحرية ، وكان لديها أسطول قوي يسيطر تماماً علي معظم بحار العالم ، أما فرنسا في ذلك الوقت فقد كان بها جنرالات علي أعلي مستوي من الكفاءة كالجنرال نابليون بونابرت الذي كان بارعا في قيادة الجيوش البرية وتحقيق الانتصارات تلو الانتصارات والذي تم اختياره لقيادة الحملة الفرنسية علي مصر والتي كان لها العديد من الأهداف التي وردت في كتب التاريخ وسوف نذكرها ونتأملها أيضاً في هذا الكتاب ،

إذن فالمطلوب بالنسبة لفرنسا أن يصل جيش نابليون إلي مصر وبمجرد تواجده علي أرضها فلن يملك الإنجليز القدرة علي مواجهته براً ولكن كانت المشكلة الكبري هي كيف يصل إلي مصر بحراً ويتعرض في الطريق إلي أسطول بريطانيا الرهيب ، فيضيع وتضيع معه أحلام فرنسا بل وأحلام نابليون نفسه ،

وبالتالي كان التخطيط للحملة يتسم بسرية غير مسبوقة حتي أن جنود الحملة أنفسهم لم يعرفوا وجهة الحملة ، ولتوضيح ذلك سنذكر هنا بعض ما كتبه أحد ضباط الحملة في مذكراته لندرك مدي السرية التي اتسمت بها هذه الحملة أثناء توجهها من ميناء طولون إلي مصر

علي متن السفينة ولا يعرفون إلي أين تتجه :

ففي مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية علي مصر ورد ما يلي :

(– – وقد خيبت الطرق التي سلكناها كافة تكهنات بحارتنا ، وغيبت عنهم الغاية التي نستهدفها ، فإذا سرنا بمحاذاة الشاطئ قالوا إنها جنوة ، وإذا نأينا عنه فالذهاب إلي سردينيا ، هكذا راحت المزاعم تختلف في كل لحظة بيد أن كل هذا اللغط ما لبث أن توقف حينما صدر لنا أمر بالاتجاه صوب سردينيا وراح الجميع إثر هذا يتصايحون : (إذاً ستتم عملية الإنزال هذا المساء ومع صباح الغد سنكون أسياد هذه الجزيرة) ، وكم كانت دهشة هؤلاء العرافين حينما صدر أمر بالمضي صوب عرض البحر بعد عدة أيام أمضيناها في تلك المحطة وما

لبثت اليابسة أن غابت من جديد عن ناظرينا وعاد ضباط البحرية يصيحون :(الآن لم يعد ثمة شك نحن نتجه إلي صقلية) ،

ما لبثت أن سرت أنباء تفيد رؤية قلوع إنجليزية في الأفق وسرعان ما انتشر هذا الخبر وراحت تتناقله الأفواه همساً حتي خشينا أن تكون قافلة (سيفيتا فيشيا) التي كان مقرراً أن تلحق بنا عند سردينا قد سقطت في أيدي العدو وقد أدي ظهور تلك الأشرعة في الأفق إلي تدعيم مخاوفنا وصدر أمر لأسطولنا بتفقد الأمر فانطلقت السفينة سبارسيات واكتشفت أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مراكب شراعية فصلتها بعض الرياح عن الأسطول ومع هذا دام القلق وتزايدت المخاوف ، بعد حين بلغنا مشارف صقلية وقد ظنها البحارة محطة الرسو نظراً للسرعة التي كنا نسير بها وراحوا يقولون : (الآن تأكد الأمر لابد أننا ذاهبون إلي مالطا) ، ربما تصدق تكهناتهم هذه المرة سوف نري ، وبينما نحن نسير كيفما شاءت الرياح وآلهة البحار لمحنا مرة أخري في الأفق سفناً لم تبد لنا فرنسية لابد أنها المفرزة الإنجليزية المتقدمة أصدر الأميرالاي أمراً بالاستكشاف فاطلقت سفينتنا من جديد ولمحت أربع سفن دنمركية تحمل القمح لجزيرة مالطا فاعترضنا مسيرتها مما جعلنا نعتقد أن تلك الجزيرة هي غايتنا بل أصبحنا شبه متأكدين من هذا ، هيأت لنا الرياح الاقتراب من هذه الجزيرة الشهيرة التي رحنا ننظر إليها وكأنها الأرض الموعودة وخاتمة مشوارنا ، في هذه الأثناء لمحنا مراكب شراعية كثيرة ، قال أحدهم : (إنه الأسطول الإنجليزي) بينما طمأنه آخر بأنها سفن فرنسية وما لبثت شكوكنا أن تبددت بعد أن تعرفنا علي السفينة لاكوراجوز المكلفة بحراسة قافلة سيفيتا فيشيا التي ظلت محط اهتمامنا الدائم منذ أن ارتحلنا ، أخيراً لحقت بنا وهي في خير حال دون التعرض لأي هجوم أو تكبد أي خسائر فكانت سعادتنا غامرة وعلي الرغم من الوجود القوي للإنجليز في البحر الأبيض إلا أن الحظ حالفنا ولم نلقهم)[٢]

<u>نلسون يبحث عن الفرنسيين في البحر :</u>

وجدير بالذكر أن الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون كان يبحث عن العمارة البحرية الفرنسية في البحر المتوسط ولم يتمكن من العثور عليها لمحافظة نابليون علي أسرار الحملة وقد وصل نلسون بالفعل إلي الإسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسية ولم يمكِّنه المصريون من الانتظار بها ثم غادرها وعاد بعد أن تمكنت الحملة الفرنسية من احتلال مصر فقام الأسطول الإنجليزي بتدمير الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية الشهيرة كما نعرف جميعاً ولكن قبل أن نتحدث عن هذه الأحداث دعنا نتأمل أولاً ما ورد في هذه المذكرات فهي تتضمن العديد من المعاني ، كالثقة الغير عادية في القائد ، وهي الثقة التي تتأكد عندما يتواجد

[٢] مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية علي مصر – ترجمة وتقديم كاميليا صبحي

الجنود في عرض البحر معرضين لهجوم من أقوي أساطيل العالم في ذلك الوقت ، ولكنهم يعرفون أن لهم قائد علي أعلي مستوي ، كما يتضح من هذه المذكرات أن البحارة أنفسهم لم تكن لديهم أدني فكرة عن اتجاه الرحلة البحرية ، يا لها من سرية ، نابليون فقط هو الذي يعرف وقائد الأسطول بالطبع ، كما يتضح أيضاً بقليل من التأمل أن العمارة البحرية الفرنسية لم تكن تبحر في خط مستقيم إلي وجهتها بل كانت متعددة المناورات إلي الشمال أحيانا ثم إلي الجنوب أحياناً أخري حتي أن الأسطول البريطاني الذي كان يبحث عنها وصل إلي الإسكندرية قبل وصولها كما سنري ، وهذا يدل علي تسرب خبر إبحار السفن الفرنسية إلي الإنجليز ، وهو أمر طبيعي نظراً لضخامة العمارة البحرية الفرنسية وكثرة السفن التجارية وغيرها في البحر وتداول الأخبار وحركة السفر ، وقد كان جيش نابليون البري بالكامل بكل معداته وأسلحته محمول علي هذه السفن وكان جيش نابليون مكون من ٣٦ ألف مقاتل[٣] وعدد السفن التي نقلتهم حوالي (ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول مؤلف من ٥٥ سفينة حربية)[٤] فتأمل معي عزيزي القارئ كل هذا العدد من السفن يصل سالماً وفي سرية تامة إلي مصر ، يالها من عبقرية من قائد عسكري محنك يصطحب معه قائد اسطول خبير

<u>وصف الجبرتي لوصول الإنجليز إلي الإسكندرية :</u>

سجل المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي أحداث الحملة الفرنسية علي مصر بأسلوب ممتع للغاية وقد وصف لحظة وصول الأسطول الإنجليزي إلي الإسكندرية قبل وصول نابليون وكيف استقبله أهل الإسكندرية ودعنا نستمتع معاً بما كتبه الجبرتي ثم نتأمله ، وقد تضمن هذا الوصف أيضاً استياء الجبرتي من سنوات الحملة بشكل عام لأن هذا الوصف ورد مع بداية سرده لأحداث أول سنة من سنوات الحملة الثلاث حيث كتب الجبرتي يصف[٥] سنة ١٢١٣ هـ (- - وهي أولي سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} (١١٧) سورة هود ، وفي يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام من هذه السنة "٢٤ يونيو ١٧٨٩م" وردت مكاتبات علي يد السعاة من ثغر الإسكندرية ومضمونها:

---

[٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٨٢

[٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٨٤

[٥] قد يكون بعض كلام الجبرتي غير مفهوم للبعض حالياً ولكن تأكد أن الذي لن تفهمه ستشعر بمعناه وبمعني كل حرف فيه

أن في يوم الخميس ثامنه حضر إلي الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز ووقفت علي البعد بحيث يراها أهل الثغر وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقايق واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر، واجتمعوا بكبار البلد والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض، السيد محمد كريم الآتي ذكره، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروا: أنهم إنكليز حضروا للتفتيش علي الفرنسيس لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندرى أين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون علي دفعهم ولا تتمكنون من منعهم، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول وظن أنها مكيدة وجاوبهم بكلام خشن فقالت رسل الإنكليز: نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين علي الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا: هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا، فعندها عادت رسل الإنكليز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية وليقضي الله أمراً كان مفعولا)[٦]

وإذا تأملنا ما سبق من كلام الجبرتي سنجده يحمل العديد من المعاني ، منها جهل المصريين التام بالموقف الدولي وطبيعة الصراع بين بريطانيا وفرنسا ، ومنها أيضاً مدي اعتزاز المصريين في ذلك الوقت بانتمائهم للدولة العثمانية والسلطان العثماني ، وكذلك عدم إدراكهم بمقدار تطور الجيوش العالمية في ذلك الوقت والانخفاض الكبير في مستوي جيوش المماليك والدولة العثمانية مقارنة بجيوش بريطانيا وفرنسا ، كما يتضح من كلام الجبرتي مدي إيمانه بقضاء الله وقدره والصبغة الدينية في سرده للأحداث واستشهاده بآيات من القرآن الكريم

أما هذه الأخبار فعندما وصلت إلي القاهرة انتشر القيل والقال بين الناس أما المماليك فلم يهتموا بشئ من ذلك علي حد تعبير الجبرتي (ولم يكترثوا به اعتماداً علي قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم)[٧] وطبعاً هذا الكلام كله غرور وليس له أساس من الصحة لأن المماليك كانوا أضعف من أن يواجهوا جيشاً حضارياً قوياً مؤسس علي أسس علمية وأسلحة حديثة متطورة فضلاً عن أن المماليك لم يكونوا في حالة من قوة الإيمان علي ما يبدو لتجعلهم يثقون بالنصر فلم يكن لهم الحق في النصر سواء بأسباب الدنيا أو أسباب السماء والله أعلم

<u>وقفة تأمل للجهل بالموقف الدولي :</u>

كانت مصر عند وصول نابليون ولاية تابعة للدولة العثمانية وكان المماليك يحكمونها بتفويض من السلطان العثماني وعلي الرغم من وجود والي عثماني في مصر إلا أن إبراهيم بك ومراد

---

[٦] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١

[٧] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢

بك كانا الحكام الفعليين لمصر ، وكان بأيديهما الأمر والنهي وكانا يجهلان تماماً طبيعة الصراع بين بريطانيا وفرنسا ، وخير وصف لهذا الموضوع ما كتبه الأديب الكبير يحي حقي حيث كتب ما يلي :

(- - السؤال الذي يتردد في خاطري وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدي إلمام قادتها بالموقف الدولي ، فإن الجهل به كان – فيما أعتقد – سبب وقوعهم في أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد ، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا

لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولي كما تمثل في إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطئ المصرية وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذي أبحر لغزو مصر ، لم يسأل أحد من هو نابليون ؟ ولماذا يريد غزو مصر ؟ ولماذا تطارده حضرتك ؟

قالا له إن مصر كنانة الله في أرضه وهي منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية ، حسباها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما ، ومع أن مصلحة المماليك توحدت ومصلحة إنجلترا في صد عدوان فرنسا علي مصر ، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون ، كانا يجهلانه كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وعاد نلسون من حيث أتي دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه ، ليس في الجبرتي أي دليل علي أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو –قبل كل شئ– لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم علي فهم الموقف الدولي ودور مصر فيه ، لعله وجدهم دون مستوي الفهم

هناك كتب في التاريخ عنوانها (لو أن .....) ، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة علي السؤال الآتي : (ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعة أبو قير قبل الغزو لا بعده؟) ، لك أن تتخيل ما تشاء فإني لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة – - - - - - - من الخطأ إطلاق وصف (القادة) علي إبراهيم بك ومراد بك ، لم يكن كل منهما في حقيقة الأمر إلا شيخ منصر همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه ، فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولي ودور مصر فيه)٨

هذا بعض ما كتبه الأستاذ يحيي حقي عن مراد بك وإبراهيم بك وننتقل إلي ما كتبه الأستاذ جمال بدوي فقد كتب تحت عنوان كذاب الزفة يصف إبراهيم بك ومراد بك آخر من سيطر من بكوات المماليك علي حكم مصر في العصر العثماني ما ملخصه :

---

٨ من كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي ملخص ما ورد تحت عنوان (وجهة نظر قابلة للتصحيح)

(كان هذان المملوكان الغاصبان – إبراهيم بك ومراد بك – يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء فهما أسدان جسوران علي الشعب المصري المسالم المستكين ولا يتورعان عن حرق القرى وتدمير المزروعات وهتك الأعراض وسبي النساء وسفك الدماء وتشريد الناس في الفلوات من أجل حفنة ريالات ولكنهما كانا أرنبين هزيلين في ساحة الوغى فما إن يبدأ وطيس القتال حتي يطلقا سيقانهما للريح تاركين المصريين العزل كالأيتام علي مائدة اللئام

فإذا زال الخطر وانقشع العدو عاد المماليك ليستأنفوا مظالمهم وجبروتهم بعد أن يقسموا بأغلظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولي والمؤسف أن المصريين كانوا يصدقونهم ، فيسلمون إليهم رقابهم مرة أخري ،

كان إبراهيم بك أكثرهما دهاء ومكراً ولذلك لم يورط نفسه في معركة غير محسوبة

أما مراد بك فكان كما وصفه الجبرتي " يغلب عليه طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر في حرب باشرها أبداً علي ما فيه من الإدعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور "

ولقد دلت جميع الأحداث علي أن هذا الأمير المتسلط كان مغروراً إلي حد البلاهة " همباكاً " إلي درجة العبط " جعجاعاً " في تقدير بطولته وقدرته علي سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه – – – ولذلك تشاءم المصريون عندما علموا أنه سوف يتصدي لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه علي القاهرة قادماً من الإسكندرية لأنهم كانوا يعرفون أن قائدهم " كذاب زفة " ولن يصمد طويلاً في المعركة

وكان مراد بك قد صرح قبل خروجه إلي المعمعة بأن الفرنسيين مثل حبات الفستق لا يصلحون إلا للكسر والأكل)[٩]

<u>ولكن ما هي الأسباب الحقيقية لهذه الحملة ؟</u>

لنقرأ كتب التاريخ ونتأمل معاً أهم الأسباب التي أدت إلي شن هذه الحملة علي مصر وهذه الأسباب قد تبدو مختلفة وكثيرة ومن وجهات نظر عديدة وبالتالي سوف أذكر لك وجهات النظر وأنا أقف علي الحياد تماماً وأترك لك تأملها بنفسك فمثلاً ذكر الرافعى عن هذه الأسباب ما يلي (الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنازع الذي قام بين فرنسا وإنجلترا علي الفتح والاستعمار ذلك التنازع الذي يرجع عهده إلي القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية ، إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية

---

[٩] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٣ ، ٢٤

سنة ١٧٩٢ م)[١٠] وأكد الرافعى أن أوروبا تحالفت ضد فرنسا حتي تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول الأوروبية ولكنها لم تتمكن من الوقوف أمام قائد عسكري بارع من الطراز الأول وهو نابليون بونابرت الذي استطاع هزيمة الدول الأوروبية (لكن انجلترا التي كانت أقوي الحلفاء شكيمة وأشدهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بمأمن من ضربات نابليون وانتصاراته ففكر في ميدان حرب يقهر فيه انجلترا فوجد أن مصر هي ذلك الميدان - - - فخُيِّل إليه أن يُشيِّد علي ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار ويصل منها إلي ضرب إنجلترا عدوة فرنسا اللدود في ذلك الحين)[١١] أما الدكتور علي الصلابي فله رأي آخر فهو يضيف إلي هذه الأسباب سبب آخر مهم وهو أن هذه الحملة هي أحد الضربات الموجهة إلي الأمة الإسلامية بشكل عام حيث كتب ما يلي (انتهز أعداء الإسلام تدهور الدولة العثمانية فاستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت ، كانت تلك الحملة صدي للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم ١٢٢ عالماً)[١٢] ويؤكد الدكتور الصلابي أن هؤلاء العلماء قد تأثروا بأفكار روسو وفولتير ومنتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفون بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات وأفكار تعادي في مجموعها الدين فهم ضد أي دولة تقوم علي مبادئ دينية (وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً علي ضرب المصالح البريطانية في الشرق)[١٣] ويؤكد أيضاً أن الهدف ليس عسكرياً فقط وأن هناك أسباباً أخري فيقول (ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية أو بالأحرى غزو عسكري وفكري ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء) أما رأي الكاتب الكبير جمال بدوي فكتب ما يلي عن هذا الموضوع (لم تكن الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م تحمل الصبغة الصليبية التي كانت للحملات السابقة التي اجتاحت الشرق الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بل يمكن وصف حملة نابليون بأنها كانت " لا دينية " إذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع - - لقد جاء نابليون إلي مصر باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين

---

[١٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧١

[١١] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧٣

[١٢] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٨٨

[١٣] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٨٨

والتي ثارت في وجه الكنيسة ورجالها بنفس العنف الذي واجهت به طبقة النبلاء والإقطاع)[١٤] ومن هنا نفهم أن نابليون هاجم الكنيسة فهل من المعقول أن يحترم الإسلام ، وهكذا عزيزي القارئ وعلي أي حال بدأت الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون وقد تخللها العديد من الأحداث المثيرة التي أرجو أن نتأملها معاً برؤية عصرية لنتابع الصدام الحضاري بين شعب متخلف بائس وجيش متقدم قوي ونذكر ما حدث بين المماليك والجيش الفرنسي

[١٤] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٧

٣. الفصل الثاني

بدء احتلال مصر

أولاُ احتلال الإسكندرية :

كانت الإسكندرية في أسوأ حالاتها من ناحية الدفاعات العسكرية بل من جميع النواحي نتيجة لإهمال القلاع والحصون والمدافع التي بها حتي أن قنصل فرنسا في مصر أرسل قبل ذلك تقريراً عن حالة الإسكندرية العسكرية وذكر فيه (إن مرافئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر – – أما قلعة المنارة " قلعة قايتباي " في ظاهرها فخمة ولكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية، والمدفعية الباقية لا تصلح للضرب ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد)[١٥] ومن هذا التقرير يتضح مدي ضعف الإسكندرية قبل وصول نابليون ، (وهكذا شاءت الأقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الأميرال نلسن فاقتربت العمارة " البحرية " من مياه الإسكندرية يوم ٣٠ يونيو ١٧٩٨)[١٦] وبالطبع علم نابليون بأن الإنجليز كانوا في الإسكندرية قبل وصوله (فخشي عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله في عرض البحر فأمر بالمبادرة إلي إنزال الجنود للبر واختار لمرسي عمارته ونزول جنوده جهة العجمي التي تبعد عن الإسكندرية غرباً نحو اثني عشر كيلومتراً)[١٧] واستمر إنزال القوات طول الليل ثم في الصباح قاموا بمحاصرة المدينة والهجوم عليها بقسوة ولم تستسلم المدينة بسهولة بل كان القتال شرس وعنيف والمقاومة علي أشدها حتي أن نابليون نفسه كاد أن يلقي مصرعه (كتب الجنرال برتييه في رسالته إلي وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٧٩٨ م يصف احتلال الفرنسيين للإسكندرية فقال : إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار ناري في جبهته فجرح جرحاً بليغاً وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلي السور فنالته رضوض شديدة – – وقتل اللواء ماس وخمسة ضباط آخرون، وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الإسكندرية في رسالته إلي حكومة الديركتوار " الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت " بثلاثين إلي أربعين قتيلاً وثمانين إلي مائة جريح وقدرها بعد ذلك في مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح)[١٨]

---

[١٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٢

[١٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٧

[١٧] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٩

[١٨] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٧١

رواية الجبرتي عن احتلال الإسكندرية :

وصف الجبرتي وصول الفرنسيين ومراكبهم فقال (فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلي جهة العجمي وطلعوا إلي البر ومعهم آلات الحرب والعساكر فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد فعندها خرج أهل الثغر – – فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم – – ورجع أهل الثغر إلي التترس في البيوت والحيطان ودخلت الفرنج البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان)[١٩] وهكذا تم احتلال الإسكندرية وترك نابليون بها الجنرال كليبر ومعه قوة من الجيش لتأمينها وإخضاع ما حولها من قرى وبلدان وأمره بمعاملة السيد محمد كريم معاملة حسنة وذلك ليتودد للمصريين رغم أن محمد كريم هو الذي قاد المقاومة ، وزحف نابليون بجيشه في اتجاه القاهرة ليواجه جيش المماليك ويحتل باقي مصر وبالمناسبة وقبل أن نترك الإسكندرية فإن كليبر الجريح واجه مشاكل ومقاومة عنيفة في الإسكندرية وما حولها واتهم محمد كريم بأنه هو المحرض والمسبب لكل هذا العنف فأرسله إلي نابليون وتم إعدامه

المنشور الفرنسي للشعب المصري :

درس نابليون مصر وأحوالها جيداً قبل حضوره وأحضر معه مطبعة عربية ومترجمين علي أعلي مستوي واستخدم المطبعة وهو لازال في البحر في طريقه إلي مصر وطبع نسخ عديدة من أول منشور لتوزيعه بمجرد الوصول إلي مصر حتي لا يضيع الوقت في الطباعة وحتي لا تحول أعمال القتال دون تنفيذها، وكان هذا المنشور يؤكد أن نابليون قد أتي إلي مصر لقتال المماليك فقط لأنهم يسيئون معاملة التجار الفرنسيين وأعلن أنه لم يأتي لقتال الشعب المصري نفسه وحاول في هذا المنشور أن يستثير القومية المصرية لفصل الشعب المصري عن الأمة الإسلامية كما أثار فيهم الحقد علي المماليك لما يتمتعون به من رفاهية الدنيا ونعيمها وشمل المنشور أيضاً تهديد واضح بحرق أي قرية تقف في طريقه كما تودد في هذا المنشور للسلطان العثماني ويعتبر هذا المنشور أكبر دليل علي أن نابليون كان معتقد بل متأكد من مدي سذاجة وتخلف الشعب المصري وسوف أتركك مع مقتطفات من هذا المنشور لتقرأ وتتأمل ما جاء فيه :

---

[١٩] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢

(بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالي مصر جميعاً أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم - - هذه الزمرة المماليك يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر علي كل شئ فإنه قد حكم علي انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالي وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضاً لهم : إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ماذا يميزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالي من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك[٢٠]، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبري وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصاري علي محاربة الإسلام - - ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه[٢١] - - طوبي ثم طوبي لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلي مراتبهم طوبي أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلي الخلاص ولا يبقي منهم أثر – المادة الأولي : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم

---

[٢٠] لقد لعب نابليون علي الوتر الحساس وذكر عدة حقائق في هذا المنشور ولكنها كلمة حق يراد بها باطل

[٢١] لاحظ معي عزيزي القارئ أن الدولة العثمانية رغم كل شئ كانت لازالت مرهوبة الجانب وكان للسلطان خليفة المسلمين مكانته أيضاً

الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر، المادة الثانية : كل قرية تقوم علي العسكر الفرنسي تحرق بالنار)[٢٢] هذا المنشور به مواد أخري وفي نهايته يطلب نابليون من الشعب المصري أن يشكروا الله لانقضاء دولة المماليك

وقد علق الأستاذ جمال بدوي علي هذا المنشور فقال :

(- - ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدي كذبه ، وكانوا يسخرون منه وهو عاكف علي ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلي المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية ، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحري " جوبير " إلي وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها : " لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرءون هذا المنشور الإسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلي ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور " ، بل إن نابليون نفسه ، اعترف في أخريات أيامه ، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل " ولكنه دجل من أعلي طراز " وعندما كان يجتر ذكرياته وهو سجين في سانت هيلانة ، اعترف لأحد أخصائه بما فعل ، وبرر سلوكه بأن " علي الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلي النجاح " وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب ، ولا يدركون الحقيقة إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمدا)٢٣

وإذا تأملنا هذا المنشور مرة أخري سندرك حقيقة ذكرها نابليون ربما بقصد أو بدون قصد عندما قال عن مصر أنها الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله كما أشار أيضاً في منشوره إلي عظمة التاريخ المصري عندما قال : وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع

---

[٢٢] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٤ ، ٥ ، ٦

[٢٣] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٣٠

٤. الفصل الثالث

المماليك والحملة الفرنسية

فكرة سريعة عن تاريخ المماليك :

مر المماليك في تاريخ مصر بثلاثة مراحل مختلفة (- فقد انقسمت فترة حكم المماليك لمصر إلي مماليك بحرية استمرت من ١٢٥٢ م إلي ١٣٨٢ م - - - ثم تلتها المماليك البرجية وهم سكان أبراج القلعة والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر علي يد السلطان سليم الأول في ١٥١٧ م)٢٤ ثم المماليك البكوات في العصر العثماني الذين بسببهم ساءت سمعة المماليك بشكل عام)، وليس من الإنصاف أن نضع المماليك جميعاً بمراحلهم الثلاثة في سلة واحدة ، فقد كانت بداية المماليك البحرية في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بداية رائعة فكان أسلوب إعداد المملوك جدير بالإعجاب (- فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالي ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار - - - فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وعندما ينتهي المملوك من تدريبه ويثبت جدارته ويصير محارباً كفئاً ينقل إلي خدمة السلطان ويتدرج في الرتب حتي يصير من الأمراء -)٢٥ ، وقد حقق المماليك البحرية العديد من الإنتصارات علي التتار وبقايا الصليبيين واستضافوا الخليفة العباسي في مصر وكانت له مكانته ، واتسع نفوذهم في المنطقة وقاموا بخدمة الحرمين الشريفين

وبلغة هذه الأيام قد حصل المماليك البحرية علي الجنسية المصرية حيث يقول الدكتور محمود الحويري : (- أنهم جاءوا إلي مصر كرقيق من بلاد متعددة وأمم شتي وأصول عرقية متنوعة ووجه الأهمية هنا أنهم أتوا أطفالاً صغاراً انقطعت حبالهم نهائياً بمواطنهم الأصلية وتربوا تربية إسلامية وتعلموا اللغة العربية ولم يعودوا يعرفون لهم وطناً غير مصر واستقروا فيها للأبد ومهما قيل في أن المماليك أجانب عن مصر وأنهم ولدوا في أرض غير إسلامية ، أو أنهم يرجعون في أصولهم إلي دماء غير مصرية فإن هذا القول مردود عليه ، لأن الانتماء الحقيقي للوطن يقوم أساساً علي خدمة هذا الوطن والدفاع عنه ورعاية مصالحه ، بغض النظر عن الجنس الذي يعيش فوق أرضه أو الأصول التي تحدر منها ، وهي حقيقة أثبتها التاريخ علي مداه الطويل ، فليس ثمة وطن يجري في عروق أبنائه دماء واحدة نقية خالصة

---

[٢٤] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة ٩٣

[٢٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٣٨ ، صفحة ٢٣٩

، ومصر بموقعها الجغرافي وتاريخها الطويل قد استقبلت أجناساً عديدة تركت أثرها فيها بصورة ما ، وإن كانت مصر قد امتصت تلك الأجناس وطبعتها بطابعها وشخصيتها ، فصارت مصرية ، وهذه الحقيقة تنطبق علي المماليك في مصر ، فهم الذين حموا شعبها وحاربوا باسمه وحافظوا علي استقلاله ضد الغزاة وينبغي ألا ننسي أن المماليك منذ ظهورهم علي مسرح الأحداث في مصر ومنطقة الشرق الأوسط قد ارتبطوا بالشرعية التي منحتها لهم الخلافة الإسلامية بوصفهم حماتها والمدافعين عنها وعن الإسلام ولذلك من الظلم الفادح أن نعتبر المماليك أجانب عن مصر -)٢٦

<u>المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول يصف بعض أمراء من مماليك العصر العثماني :</u>

جدير بالذكر أن المماليك في العصر العثماني تحولوا إلي أمراء وبكوات وكانوا قبل ذلك سلاطين وملوك في أيام المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حتي خضعت مصر للحكم العثماني وأصبحت ولاية تابعة بعد أن كانت مملكة مستقلة ، وبالرغم من ذلك قام مماليك العصر العثماني بمحاكاة سابقيهم من سلاطين المماليك لينالوا المجد والشرف ولكن كان هناك فرق كبير وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ والباحث البريطاني ستانلي لين بول ما يلي : (- - والواقع أنه يصعب علينا كشف أي فارق جوهري بين هؤلاء الأمراء المتأخرين ، وبين أولئك الذين ظهروا خلال العصر الذهبي لحضارة المماليك ، حقيقةً أن فرصهم المواتية كانت أقل ، لأنهم لم يقووا علي القتال في سوريا أو آسيا الصغري لمصلحتهم الخاصة ، وذلك لأن الخطط التي كانت ترسم في مصر علي الدوام للاستغلال الأجنبي ، كانت تستخدم كجانب ضئيل للجيوش العثمانية ، إلا أن من الواضح أن شخصياتهم وأعمالهم وميولهم كانت تشبه إلي أبعد الحدود ما كانوا عليه في القرنين السابقين لهم ، فقد كان الفرق إذن في الحكم لا في النوع ، ذلك أنهم لم يكونوا أناساً ذوي فرص عظيمة مثلما كان أسلافهم ، وإنما كانوا يشبهونهم في الجنس والخلق والعمل إلي حد بعيد ، والحقيقة أن بعضهم كان ذا شخصية قوية يمكن مقارنتها بشخصيات المدرسة القديمة ، فعثمان بك ذو الفقار - علي سبيل المثال - في النصف الأول من القرن الثامن عشر - - - في عام ١٧٣٩م أصبح أميراً للحج وهو من أشهر المناصب في مصر ، - - وكان عثمان بك هو أول أمير يجرؤ علي دعوة باشا مصر "العثماني" لوليمة في قصره ، وقد كان خضع بسيطرته بقية نبلاء مصر خضوعاً تاماً ، كما أنه كان يعقد مجلساً في قصره الخاص ليبحث أسباب الشكوي ، وكان يعاقب في صرامة وشدة كل حالات الاغتصاب والظلم ، لأنه هو نفسه كان نقياً نزيهاً ، كذلك كان يراقب مفتش الأسواق عن كثب ، ويحدد أسعاراً ثابتة للخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر

---

[٢٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤٠

تنفق في الأوجه الصحيحة ، ولقد كان سامياً في خلقه ، ذا أفكار وآراء نبيلة ، عادلاً ، قوياً ، نزيهاً ، ذا حياة شريفة ، أبياً كريماً ، بحيث أنه خلف من ورائه أثراً ، حينما تسببت مؤامرات خصومه في نفيه من مصر ، كان من نتيجته أن كان ينسب إليه عصر من العصور ، فقد كان القوم يقولون مثلاً : إن ذلك الشئ حدث بعد رحيل عثمان بك ببضعة سنوات ، أو لقد كان عمري كذا من السنين حينما رحل عثمان بك ، ولقد كان رضوان بك الجلفي ، علماً بارزاً آخراً من أعلام القرن الثامن عشر ، فحينما كان يتولي السلطة هو ونائب آخر يدعي إبراهيم ، كانت البلاد تتمتع بسلام شامل ، وكان الطعام أرخص منه في أي وقت قبل ذلك ، وعلي الجملة فإن جميع الطبقات كانت تعيش في يسر ورخاء ، وكان كل رجل عظيم في تلك الأيام يفتح منزله مرتين كل يوم في الظهر والمساء لكل قاص ودان ، وذلك في بهو عظيم الاتساع ، وكان السيد وضيوفه يتصدرون المائدة ، ثم يليهم المماليك والأتباع ، وكان من العار الا يسمح لأي غريب بالدخول ما دام قد قدم بنفسه إلي هناك ، أما أيام الأعياد فكانت توزع أطباق كبيرة من الأرز وعسل النحل أو اللبن علي الفقراء ، كذلك كانت توزع الحلوي في أيام الجمع والاحتفالات الرسمية ، وكان أحد منازل رضوان الأنيقة يقع علي بركة الأزبكية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة ، فيها نقوش عربية من الذهب علي أرضية لونها أزرق ومرصعة بالزجاج باللون المتناسق الذي يكسبها روعة فوق الروعة ، كذلك فإنه بني أكشاكاً في حديقة بجوار قناة حيث كان قد حفر بركة وأقام جندلاً ، وهناك وحينما خمدت أطماعه وآماله كان ينغمس في الملذات التي كان يسر منها كثيراً ، والحقيقة أن رضوان لم يكن يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم عثمان بك)[٢٧]

<u>علي بك الكبير :</u>

ومن أبرز الأحداث في العصر العثماني في مصر ما حدث في عهد الأمير المملوكي علي بك الكبير فأثناء قيام الدولة العثمانية بقتال روسيا والنمسا خلال القرن الثامن عشر كان شيخ البلد في مصر علي بك الكبير الذي انتهز فرصة حروب العثمانيين الكثيرة وانشغالهم بها وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وإليك بعض ما كتبه الرافعى عن هذا الموضوع (فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩م "١١٨٣هـ" وعزل الوالي التركي ومنع ورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من مماليكه وأتباعه أحمد " باشا " الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجداوي وإبراهيم

---

[٢٧] نقلاً باختصار عن كتاب سيرة القاهرة للمؤرخ البريطاني ستانلي لين بول صفحة ٢٣٧ ، ٢٣٨

بك ومراد بك وغيرهم مما كانت لهم الأدوار الكبيرة علي مسرح الحوادث)٢٨ ، (وكان علي بك طموح النفس واسع المطامع فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادي به شريف مكة " سلطان مصر وخاقان البحرين " وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها ولكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتي انقلب علي علي بك الكبير واتفق مع الباب العالي وعاد إلي مصر ليستأثر بالحكم فيها وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل علي بك سنة ١٧٧٣ وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبو الذهب واستقر شيخاً للبلد وكافأته تركيا بفرمان تثبيته في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر وصار له الأمر والنهي في البلاد ورجعت تركيا إلي إرسال الولاة كما كان الأمر قديماً غير أن الوالي كان محجوراً عليه مسلوباً حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالي الذي يرتضيه والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة وكافة مماليكه وأتباعه إلي أن مات سنة ١٧٧٥ م "١١٨٩هـ " فخلفه في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك)٢٩ ومحمد بك أبو الذهب يوجد باسمه حالياً مسجد بجوار الجامع الأزهر وقد وصف الجبرتي محمد بك أبو الذهب عندما كتب عن حوادث سنة ١١٨٨ هـ "١٧٧٤م" فقال : (استهلت ووالي مصر خليل باشا محجور عليه ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة علي الأوراق والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وإشراقاته والوقت في هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضية والأسعار رخية وفي الناس بقية وستائر الحياء عليهم مرخية شعر :

وما الدهر في حال السكون بساكن - - - ولكنه مستجمع لوثوب)٣٠

وكتب الرافعى يصف أحوال المصريين قبل دخول نابليون ما يلي (كان المسلمون والأقباط يشتركون علي السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الإدارة وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية فعهد إليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها)٣١ كما وصف الرافعى القاهرة في ذلك الوقت بقوله (كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالاً من الحسينية إلي باب الحديد وجنوباً من القلعة إلي باب عرب اليسار إلي باب السيدة عائشة إلي جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب ، وشرقاً من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية ، وغرباً من باب الحديد إلي الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فباب الناصرية فباب السيدة زينب ، وكان موقع

---

[٢٨] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١ صفحة ٣٧

[٢٩] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١

[٣٠] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٢ صفحة ٦٠٤

[٣١] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٥

المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين فجامع الظاهر مثلاً وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غرباً والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة أيضاً وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق ولم يكن علي شاطئ النيل سوي بعض مبان قليلة كقصر إبراهيم بك " قصر العيني " تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطي وعن شماله بيت لمصطفي بك ، وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ومصر القديمة مرفأها في الجنوب)٣٢ ويضيف الرافعى (وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر في خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت علي عوامل الفناء وسوء الإدارة فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبةً بعد الأستانة وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن " الوكائل ")٣٣ وبالمناسبة كان هناك أربعة ميادين رئيسية كبيرة منها ميدان قراميدان تحت القلعة وميدان الرميلة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه قراميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية " بركة الأزبكية " (وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان)٣٤ وكان تقدير عدد سكان العاصمة القاهرة حوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة٣٥ وفي تقدير آخر ٢٦٣٠٠٠ نسمة وكانت الإسكندرية ولازالت أهم وأكبر مدينة بعد القاهرة

<u>المواجهة بين المماليك والجيش الفرنسي :</u>

ذكرنا أنه قبل وصول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت كان الأمراء المماليك يحكمون مصر في ظل الحكم العثماني وكما لو كانوا قد توقف بهم الزمن عند أيام أسلافهم من سلاطين المماليك قبل خضوع مصر للحكم العثماني فكانوا يعيشون علي ذكريات أمجاد الانتصارات التاريخية القديمة علي التتار والصليبيين وغيرهم فلم يدركوا حجم التطور الهائل الذي وصل

---

[٣٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٧ ، ٦٨

[٣٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٩

[٣٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٩

[٣٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧٠

إليه جيش نابليون بونابرت ، فقد وصف الجبرتي عدم اهتمامهم عند سماعهم خبر قدوم الحملة الفرنسية علي مصر ،
ولكي نحكم علي مدي التطور الذي حدث للجيش الفرنسي سنذكر آخر مواجهة تمت بين الجيشين المملوكي والفرنسي في معركة المنصورة

ما بين معركتي المنصورة (١٢٥٠م) وإمبابة (١٧٩٨م) :

المعركتان كلاهما دارت بين الجيش الفرنسي والجيش المملوكي وإن كان الجيش المملوكي في معركة المنصورة كان بقيادة أيوبية ، وانتصر المماليك في معركة المنصورة علي الجيش الفرنسي وتم أسر الملك لويس التاسع واحتجازه بدار ابن لقمان بالمنصورة ، بينما انتصر الجيش الفرنسي في معركة إمبابة علي المماليك ، والفاصل الزمني بينهما ٥٤٨ سنة ، والفرق هائل بين المعركتين ، إنه فرق يوضح مستوي التدهور في أحوال مصر وأحوال المماليك أنفسهم ، ولقد ذكرنا العديد من الانتصارات الساحقة التي قام بها المماليك البحرية والمعارك الشرسة التي قام بها المماليك البرجية ، فلماذا لم يتمكن مماليك العصر العثماني من تحقيق بعض هذه الانتصارات ، وإن كان المؤرخ الذي وصف معركة الأهرام لم ينكر عليهم الشجاعة والبسالة ، ومن هنا يتضح أن صفة الشجاعة في القتال لم تتأثر مع الزمن ولكن الذي اختلف هو الجهل والتخلف
وقد وردت تفاصيل عجيبة عن المعركة التي دارت بين المماليك والفرنسيين في الكتاب الخامس من سلسلة كتب –صفحات من تاريخ مصر– وهو بعنوان تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم اسماعيل – تأليف المستر جورج يانج – تعريب : علي أحمد شكري – الطبعة الثانية ١٩٩٦ – مكتبة مدبولي – ويؤكد المؤرخ جورج يانج في هذا الكتاب أن فن المماليك العسكري قد صار عتيقاً ويقول : وقد نشعر بالعطف علي ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون ، وقد رأي نابليون أن احتلال مصر عسكرياً لن يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسي وعدده حوالي ٤٠٠٠٠ زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف علي القاهرة وكان رسل المدنية الحديثة –علماء الحملة– المائة والاثنان والعشرون في قلب الجيش بينما جيش المماليك في عرض الأفق ووقف المماليك يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والإزدراء ،

هل من مبارز ؟

وأخيراً برز أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلي الفرنسيين حتي صار علي بضع خطوات منهم ، وهنالك طلب مبارزة

الكولونيل ، ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش – أجابوا علي طلب المبارزة بإطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء ، وما كانت معركة الأهرام التي نشبت علي أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلي القاهرة سوي تكرار لهذا الحادث ولكن علي مقياس أكبر ، فقد اشترك فيها نحو ١٠٠٠٠ من فرسان المماليك وبضعة آلاف من المشاه الإنكشارية وعدد من المقاتلين المصريين ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق في مياه النيل ، هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة ، علي أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا مربعات القادة الفرنسيين – ديزيه ورينييه ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الأكيد ، وجدير بالذكر أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة الأهرام أو معركة إمبابة تمت في يوم ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون علي بعد ميلين من إمبابة فكانوا بين النيل والأهرام وإمبابة أمامهم ، وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية ، فلما رأي بونابرت حسن استعدادهم التفت إلي جنوده وقال جملته المأثورة : اعلموا أن خمسين قرناً تنظر إليكم من قمم هذه الأهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما سيصبح عليه أمركم مع هؤلاء المماليك – – ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه بالتقدم نحو اليمين والفرق الأخري نحو اليسار – – لكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار بالهجوم ، فهجم أيوب بك وهو يصيح : ويل لكم أيها الملاعين ، قد ساقكم كبرياؤكم إلي أرضنا – – إننا سنملأ القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكره أعقابكم من بعدكم – – – – ودارت المعركة إلي أن تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك إلي الصعيد واستولي بونابرت علي إمبابة

<u>وصف الجبرتي لاحتلال العاصمة :</u>

وصف الجبرتي القتال بين الفرنسيين والمماليك فقال (وفي يوم الأحد غرة شهر صفر "١صفر ١٢١٣هـ /١٥يوليو ١٧٩٨م" وردت الأخبار بأن في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم التقي العسكر المصري مع الفرنسيس فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بيك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وإنما هي مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية – – فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولي منهزماً وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ورجعوا طالبين مصر ووصلت الأخبار بذلك إلي مصر فاشتد انزعاج الناس وركب ابراهيم بك إلي ساحل بولاق)[٣٦] والجبرتي رحمه الله يقصد بكلمة مصر العاصمة

[٣٦] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٧

أما قبل هذه المعركة فكانت أول مواجهة بين مراد بك والجيش الفرنسي في النيل بالقرب من شبراخيت وكانت عبارة عن تبادل لإطلاق القنابل بين المراكب وكاد أن ينهزم الأسطول الفرنسي " النهري" لشدة المقاومة من الأهالي المسلحين علي شاطئ النيل من الجانبين لولا دقة الإصابة للمدافع الفرنسية التي أصابت السفينة التي تحمل مستودع البارود فتم نسفها بشكل بشع أثار رعب المماليك وأدي إلي انسحابهم، ثم وقعت المعركة الثانية وهي التي تسمي معركة إمبابة أو الأهرام لأن جيش مراد بك كان ممتد من إمبابة إلي الأهرام غرب النيل أما ابراهيم بك فكان مع جيشه وباقي أهل العاصمة في ساحل بولاق علي الشاطئ الشرقي للنيل يراقبون ما يحدث في الغرب وتمت هزيمة المماليك وانسحابهم بعد أن أحرقوا مراكبهم الممتلئة بالذخائر كي لا تقع في يد الفرنسيين وشعر من في شرق النيل بالرعب لسببين أولاً لهزيمة المماليك وثانياً لظنهم أن حريق المراكب عبارة عن حريق أشعله الفرنسيون في المساكن الموجودة غرب النيل وإليك بعض ما وصفه الجبرتي عن هذا الحدث (ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم علي كيفية معلومة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من توالي الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت)[٣٧] وفر الناس وفر المماليك والمشكلة الكبري أن كل من خرج من القاهرة وقع في مصيبة كبري وتم نهبه وسرقة كل ما يملك حتي ملابسه بواسطة العربان (وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جري فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين - - ولما أصبح يوم الأحد المذكور "٢٢يوليو١٧٩٨م" والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم في أسوأ حال من العري والفزع فتبين أن الإفرنج لم يعدو إلي البر الشرقي وأن الحريق كان في المراكب المتقدم ذكرها فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ)[٣٨]

---

[٣٧] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١١

[٣٨] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١٤

٥. الفصل الرابع
نابليون في القاهرة

رسالة مشايخ الأزهر لنابليون :

وهكذا اجتمع علماء الأزهر وأرسلوا رسالة إلي الجيش الفرنسي فرحب بها نابليون وأرسل إليهم يطمئنهم ويتودد إليهم وبهذا تم عبور الجيش الفرنسي نهر النيل واستلم العاصمة وسكن نابليون في بيت محمد بك الألفي بالأزبكية وقد كان خالياً بالطبع وهرب مراد بك إلي الصعيد وأصبح بعد ذلك يسبب متاعب كثيرة للجيش الفرنسي في الجنوب ، وأسس نابليون ديوان من المشايخ والأعيان في مصر كحكومة وطنية ولكن لم يكن لها سوي الرأي الاستشاري الذي لا يؤخذ به علي أي حال وكان الغرض الحقيقي منها أن تكون حلقة الاتصال مع الشعب المصري ، كما أسس نابليون المجمع العلمي الذي ضم علماء الحملة وكانت مهمته الأساسية هي الرد علي أسئلة نابليون وحل مشاكل الحملة بأساليب علمية ودراسة المواقف المختلفة بأسلوب دقيق مبني علي حقائق ومعلومات دقيقة وبدأ يجمع معلومات عن كل شئ في مصر وكان الجيش الفرنسي أثناء تقدمه في اتجاه العاصمة يواجه من الأهالي أنفسهم مقاومة أشرس من مقاومة المماليك ، ووصف الجبرتي كفاح الشعب المصري وبذله الأموال لتمويل الحرب ضد الفرنسيين (بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت أنفسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشئ يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر)[٣٩]

نابليون بونابرت

معركة أبو قير البحرية :

(علي مقربة من الإسكندرية وفي منتصف المسافة تقريباً بينها وبين رشيد في خليج أبو قير وقعت يوم أول أغسطس سنة ١٧٩٨م الواقعة البحرية الشهيرة بواقعة أبو قير بين الأسطول الإنجليزي بقيادة الأمير نلسن والأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال برويس وانتهت بتحطيم الأسطول الفرنسي وتدمير معظم سفنه وأسر الباقي ومقتل أميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة

---

[٣٩] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٨

آلاف من بحارته فكانت هذه الواقعة كارثة عظمي أصابت البحرية الفرنسية وقضت علي آمال فرنسا في بسط سيادتها علي البحر المتوسط وكانت في الوقت نفسه أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية في مصر)[٤٠] وأخيراً استطاع نلسن أن يلتقي بأسطول فرنسا وتدميره بل والقيام بحصار بحري لمصر بحيث يقطع صلة الحملة الفرنسية عن وطنها في فرنسا وقد أضعف ذلك بالطبع من الروح المعنوية للجنود لولا أن معهم قائد من نوع خاص يمكنه التغلب علي الصعوبات والمحن ولديه مواهب خاصة لا تتوفر في الكثير من القادة ولكنه لم يتمكن من كسب ود الشعب المصري كما كان يحلم

نابليون والاحتفالات الدينية في مصر :

من الثابت تاريخياً أن نابليون اهتم بإحياء الموالد والاحتفالات الدينية ولكن السبب في ذلك يختلف من وجهة نظر كل مؤرخ وطبقاً لرؤيته فمثلاً يقول الرافعي : (كان نابليون يسعى بكل الوسائل إلي كسب قلوب المصريين واستلال الضغينة منها وتخفيف حدة النفرة والكراهية التي كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ومن الوسائل التي ابتكرها إقامته الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلي قلوبهم ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطري إلي الابتهاج والانشراح -- – فأراد أن يصل إلي قلوبهم عن طريق التفريج وكان له غرض آخر من إقامة المهرجانات والحفلات ذلك حين أراد أن يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله في واقعة أبو قير البحرية ويتظاهر بأنه لا يكترث لها ويتودد إلي زعماء الشعب ليكسب ثقتهم في تلك الأوقات العصيبة بعد أن أصبح محصوراً في القارة الأفريقية)[٤١] كان هذا رأي الرافعي أما رأي الجبرتي شاهد العيان فكان له رأي آخر فعندما تكلم عن أحد الموالد قال : (فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا منه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء وإتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد)[٤٢] وكان هناك إصرار عجيب من نابليون علي إحياء هذه الموالد ويدعمها بالمال فمثلاً (سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال " لابد من ذلك " وأعطي له ثلثمائة ريال فرانسة معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم – – وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حراقة

---

[٤٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢١٥

[٤١] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٥٣

[٤٢] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١٣٨

نفوط وسواريخ تصعد في الهواء)٤٣ كما وصف الجبرتي أيضاً ما كان يحدث في مولد الحسين رضي الله عنه فقال : (ويوم الأحد سادسه نادي القبطان الفرنساوي الساكن بالمشهد الحسيني علي أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين وشدد في ذلك وأوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرانسة)٤٤ ويضيف الجبرتي متأسفا (فيصفون أكتافهم في أكتاف بعض - - ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة - - فيقع في المسجد دوي عظيم ، هذا مع ما ينضم إلي ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت إلي حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتنان بهم ورمي قشور اللعب والمكسرات والمأكولات في المسجد - - فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقاً بالأسواق الممتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)٤٥

فشل نابليون في استمالة المصريين :

(أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويتودد إليهم ويكسب ثقتهم لأنه كان علي يقين أنه ما لم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع أن ينشئ علي ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه مهما أوتي من قوة الجند والسلاح لكن نابليون قد خاب في تحقيق هذا الأمل وكان إخفاقه راجعاً إلي أن الأمة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن إليه بحال من الأحوال ولم تخدع في حقيقة الأغراض التي كان يرمي إليها نابليون من الحملة وتلك فضيلة تدل علي مبلغ الحيوية الكامنة في الأمة والواقع أن نابليون مع تلك الوعود التي كان يمني بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب - - ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم علي أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التي فتح بلادها بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه في الفتح والسلطان - - وقد واجهت الحملة مقاومة عنيدة اعترف بها مؤرخو الحملة من الفرنسيين أنفسهم وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلي مصر : بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد وكان مركزهم فيها مزعزعاً ومحفوفاً بالمتاعب ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها وقد ذهب

---

٤٣ عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢٤، ٢٥

٤٤ عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٧

٤٥ عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٧

كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة)٤٦ ويمكن القول أن المصري آنذاك كان لا يمكنه الثقة بأي شخص لا يؤمن بالله مهما كانت القوانين البشرية التي يخضع لها ويعمل لها ألف حساب ومهما كانت المبادئ التي يؤمن بها فهو عندما يطبق القانون يطبقه علي بني جنسه فقط في أغلب الأحيان ولن يتورع عن فعل الأفعال القبيحة والبشعة بضحاياه أما الذي يخاف الله فإنه يتقي الله في جميع الظروف ومع جميع البشر ويطبق منهج الله وأوامره حتي علي ألد أعداءه لأن مراقبة المولي عز وجل للعبد دائمة ومؤكدة {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} (١٩) سورة غافر فلا يستطيع الهرب من رقابته عز وجل كما يتهرب غير المؤمن من رقابة البشر وقوانينهم كلما أتيحت له الفرصة

---

٤٦ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٥٢ ، ١٥٣

٦. الفصل الخامس

مقاومة الحملة الفرنسية وثورة القاهرة الأولي

سلوك نابليون مع المصريين :

(إن سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدهم به في منشوراته وبياناته لقد كان ينعى علي المماليك ظلمهم فانظر ماذا فعل هو في إرهاق الأهالي بالضرائب والمغارم)٤٧ لقد فرض نابليون علي المصريين ضرائب فوق طاقتهم (وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل)٤٨ كما فرض ضريبة لم تكن معروفة من قبل في مصر وهي الضريبة العقارية (ومن مظالم الفرنسيين التي أحرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيراً من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها وهدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة)٤٩ وحاول الديوان الذي أسسه نابليون من المشايخ إلغاء هذه الضرائب أو حتي تخفيفها ولكنه فشل (ومن المظالم التي أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطني والحكم عليه بالإعدام ، والواقع أن الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي ويحملوهم علي الخضوع والإذعان)٥٠ ونتيجة لكل هذا وغيره قامت الثورة في القاهرة وكان الجامع الأزهر هو المكان الرئيسي لها ومصدرها وتم قتل الجنرال ديبوي حاكم القاهرة والعديد من الجنود الفرنسيين وسيطر الثوار علي أبواب القاهرة الرئيسية مثل باب زويلة وباب الفتوح ويقول الرافعي (أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ علي أرجح الروايات أربعة آلاف ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعوا إلي إفناء هذا العدد الكبير من السكان - - علي أنك إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلادها إلي السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ولهي أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام)٥١

وصف الجبرتي لقمع الثوار :

وإليك بعض ما كتبه الجبرتي عن هذه الأحداث : (وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في

---

٤٧ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦٠

٤٨ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦١

٤٩ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦٥

٥٠ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦٧

٥١ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٨١

البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب ركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل ويكفهم كما تكف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير وأتهمهم بالتقصير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم وقاموا من عنده وهم ينادون بالامان في المسالك وتسامع الناس بذلك فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة واطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب

:وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمي المتتابع بالقنابر والمدافع الى ان مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الادوات فعجزوا عن ذلك وانصرفوا وكف عنهم القوم وانحرفوا

إهانة الجامع الأزهر :

وبعد هجعة من الليل دخل الافرنج المدينة كالسيل ومروا في الازقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند ابليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلموا باليقين ان لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا ارسالا ركبانا ورجالا ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحته ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالاورقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه وأصبح يوم الثلاثاء فأصطف منهم حزب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعا ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي افواجا واتخذوا السعي والطواف بها منهاجا وأحاطوا بها احاطة السوار ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون وللنجاة بأنفسهم طالبون وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد ان كانت أشرف البقاع وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل قذفوهم ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله

المشايخ يطلبون العفو من صاري عسكر :

فركب المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه وخاطبوه في العفو ولاطفوه والتمسوا منه أمانا كافيا وعفوا ينادون به باللغتين شافيا لتطمئن بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويف وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين في اثارة العوام وحرضهم على الخلاف والقيام فغالطوه عن تلك المقاصد فقال على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد فترجوا عنده في اخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر باخراجهم في الحال

رسالة إلي الشعب علي لسان المشايخ :

قال الجبرتي : واستهل شهر جمادى الثانية بيوم السبت سنة ١٢١٣ فيه كتبوا عدة اوراق على لسان المشايخ[٥٢] وارسلوها الى البلاد والصقوا منها نسخا بالاسواق والشوارع وصورتها : نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرأ إلي الله من الساعين في الأرض بالفساد ، نعرف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية بعدما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب علي ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته ، وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة علي المسلمين ومحبة إلي الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر – الفرنساوية – أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرأون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا علي عيالكم وأديانكم ، فإن الله سبحانه وتعالي يؤتي ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة واشتغلوا بأسباب معيشتكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام

محاولة إثارة أول فتنة طائفية في مصر :

استطاع الفرنسيون أن يخلقوا العداوة بين المسلمين والمسيحيين بالرغم من أن المسيحيين واليهود كانوا يعيشون في أمان مع المسلمين في مصر منذ قرون طويلة وإليك بعض مقتطفات مما قرأت عن هذا الموضوع (نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية

---

[٥٢] قد يقصد الجبرتي بتعبير علي لسان المشايخ أنها في الأساس من قيادة الحملة الفرنسية وزعموا أنها من علماء المسلمين

المسيحية علي معاونة الحملة بمختلف الوسائل)[٥٣] ، (أسرفت بعض الطوائف غير الإسلامية في مصر في تأييد الفرنسيين إسرافاً وصل إلي حد تكوين فرقة عسكرية من أبناء هذه الطوائف وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم علي النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسد النقص في عدده - - وقد نظر الشعب المصري إلي هذه الفرق علي أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر وتزعم هذه الفرق المعلم يعقوب حنا إذ كون فرقاً عسكرية من الأقباط وكانوا يرتدون زياً مشابهاً لزى الجنود الفرنسيين)[٥٤] وكان سبب لجوء الفرنسيون لهذا الأسلوب هو محاولة تمزيق النسيج المصري المترابط كما سعي رجال الحملة إلي زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم ، ولأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية يتم حكم المصريين بقانون وضعي من صنع البشر (فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً يحكم به المسلمون غير شريعة الله قانوناً مستمداً من التشريع الفرنسي وحصر تشريع الله في أمور الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وكانت تلك هي المرة الأولي في تاريخ المسلمين التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله يضعه وينفذه قوم غير المسلمين - - وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية ، هزيمة العقيدة وبدء انحسارها في عالم الواقع الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين ، انبهاراً بقوة السلاح أولاً ، وانبهاراً بالمطبعة التي جاء بها نابليون إلي مصر وانبهاراً بالتنظيمات التي أحدثها وفي كلمة واحدة انبهاراً بكل ما جاء من الغرب وكل ما ليس بإسلام وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة التي مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار - - بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم في واقع الحياة لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثاً حقيقياً في عالم الواقع بعد هذه الهزيمة الداخلية التي خلفتها الحملة الفرنسية في نفوس المسلمين)[٥٥]

الخليفة العثماني يدعو للجهاد :

(كان الهجوم الفرنسي علي مصر يعتبر أول هجوم صليبي علي ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث ، وعلي الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد علي الفرنسيين الصليبيين " ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م" واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز والشام

---

[٥٣] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٩٠

[٥٤] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٩١

[٥٥] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤٠١

وشمال أفريقيا)[٥٦] ولم يكن موقف الأمة الإسلامية علي ما يبدو في ذلك الوقت مثل ما كان من قبل فدعوة الجهاد كان يقابلها استجابة واسعة النطاق كثيرة العدد والعدة كأيام المسلمين الأوائل فقد كانت الاستجابة تكفي لتكوين جيوش جرارة من المجاهدين كما كان يحدث وأقرب مثال علي ذلك عندما اجتمع المجاهدين مثلاً حول صلاح الدين أو حول السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وغيرهم من السلاطين أما عندما وجه الدعوة للجهاد الخليفة العثماني السلطان سليم الثالث فلم تكن الاستجابة برغم حدوثها ترقي لنفس مستوي الاستجابة التي كانت تحدث من قبل ، بل وفقدت التنسيق فيما بينها عند احتدام القتال والأغرب من ذلك أن الجيوش العثمانية نفسها كانت تفقد القيادة العسكرية الناجحة فنري الجيوش التي تنقل براً تأتي في توقيت مختلف عن الجيوش التي تنقل بحراً وكل قوة منهم تواجه الفرنسيين وحدها دون حشد لجميع القوي ،

حركة الجهاد ضد الحملة الفرنسية :

خرج من الحجاز حوالي ستمائة مجاهد بقيادة شخص يُدعي محمد الكيلاني وركبوا البحر إلي القصير وانضموا إلي جيش مراد بك وتسببوا في خسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر كما خرج من ليبيا مجموعة من المجاهدين بقيادة المهدي الدرناوي (وضم إليه رجال القبائل من أولاد علي والهنادي وغيرهم ، وانحاز إليه سكان القرى التي مر بها فسار بهذه الجموع المسلحة حتي وصل إلي دمنهور)[٥٧] وقد انتصر انتصار كبير علي الحامية الفرنسية بدمنهور ثم وصلت إمدادات من الجيش الفرنسي للدفاع عن دمنهور ومواجهة المجاهدين ووقعت معركة شرسة وعنيفة وصفها أحد مؤرخي الحملة الفرنسية نفسها فكتب (إن عدد رجال المهدي كانوا خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وإن القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيعة وهذه الواقعة من أشد الوقائع التي واجهها الفرنسيون في القطر المصري ،أظهر فيها أتباع المهدي من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافاً بالموت لا نظير له)[٥٨] وقد واجه الفرنسيون هذه الأزمة باهتمام بالغ وحشد غير عادي للقوات والإمدادات حتي استطاعوا اجتيازها بصعوبة شديدة ، ومن هنا يتضح أن الجيوش العثمانية والمجاهدين لم تكن تجمعهم قيادة واحدة أو حتي تنسيق أو تزامن في القتال

---

[٥٦] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٩٢

[٥٧] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٥٢

[٥٨] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٥٣ ، ٥٤

نابليون والفشل أمام عكا :

(كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا وسعي بكل الوسائل في مودتها والتفاهم وإياها)[٥٩] ولكنه فشل في إقناع الدولة العثمانية بالغرض من حملته علي مصر وعندما شعر بخطر الجيش العثماني وزحفه في اتجاه مصر براً وبحراً قرر أن يبادر هو باحتلال سوريا وملاقاة أي تهديدات عثمانية قبل وصولها وبالفعل قام بحملة كبيرة علي سوريا وفلسطين واستمر يقاتل ويحقق انتصارات ويكسب أراضي جديدة إلي أن توقف أمام عكا ووواليها في ذلك الوقت أحمد باشا الجزار ، حيث قام نابليون بفرض حصار علي عكا ولكنه فشل في اقتحامها كما نعلم جميعاً وبدون الخوض في التفاصيل ارتد نابليون إلي مصر بعد أن فقد خيرة رجاله تحت أسوار عكا (فقد بلغ عدد القتلى الفرنسيين ٢٢٠٠ قتيل منهم ١٢٠٠ قتلوا في المعارك وخاصة في حصار عكا و ١٠٠٠ ماتوا من الأمراض وبلغ عدد الجرحى ٢٥٠٠ جريح ومريض)[٦٠] وكعادته كقائد ناجح لم يهتز نابليون بهذه الكارثة علي الأقل أمام جنوده وبرر جميع المواقف لصالحه وأرسل رسالة للشعب المصري يوضح فيها أسباب عودته إلي مصر

رسالة نابليون من أمام عكا

رسالة نابليون إلي الشعب المصري بعد فشله في اقتحام عكا سنة ١٢١٤ هجرياً يعلمهم فيها بقرار عودته من أمام عكا إلي مصر كما أوردها الجبرتي في كتابه الممتع عجائب الآثار في التراجم والأخبار حيث كتب ما يلي : ثم دخلت سنة أربع عشر ومائتين وألف ، استهل شهر المحرم بيوم الأربعاء فيه حضر جماعة من الفرنسيس إلي العادلية فضربوا خمسة مدافع لقدومهم ، فلما كان في ثاني يوم عملوا الديوان وأبرزوا مكتوباً مترجماً ونسخته :

صورة جواب من العرضي[٦١] قدام عكا ، وفي سابع عشرين فريبال الموافق لحادي عشر شهر الحجة ١٢١٣ (١٥مايو١٧٩٩) من بونابرته ساري عسكر أمير الجيوش الفرنساوية إلي محفل ديوان مصر ، نخبركم عن سفره من بر الشام إلي مصر ، فإني بغاية العجلة بحضوري لطرفكم نسافر بعد ثلاثة أيام تمضي من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوماً وجائب معي جملة محابيس بكثرة وبيارق ومحقت سراية الجزار (أحمد باشا الجزار والي عكا في ذلك الوقت) وسور عكا وبالقنبر هدمت البلد ما أبقيت فيها حجراً علي حجر وجميع سكانها انهزموا من البلد إلي طريق البحر والجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه يبلغ لخطر الموت ، ومن جملة ثلاثين مركباً موسوقة عساكر الذين حضروا يساعدون الجزار

---

[٥٩] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٠

[٦٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٣٣

[٦١] المعسكر

ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا وأخذنا منها أربعة موقرة مدافع والذي أخذ هذه الأربعة فرقاطة من بتوعنا والباقي تلف وتبهدل والغالب منهم عدم وإني بغاية الشوق إلي مشاهدتكم ، لأني بشوف أنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم لكن جملة فلاتية دائرون بالفتنة لأجل ما يحركون الشر في وقت دخولي ، كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس ، ومنتوره مات من تشويش هذا الرجل صعب علينا جداً والسلام ،

منتوره هذا ترجمان ساري عسكر وكان لبيباً متبحراً ويعرف باللغة التركية والعربية والرومية والطلياني والفرنساوي ، ولما عجز الفرنساوية عن أخذ عكا وعزموا علي الرجوع إلي مصر أرسل بونابرته مكاتبة إلي الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها إن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً :

الأول الإقامة تجاه البلدة وعدم الحرب ستة أيام إلي أن جاءت الانكليز وحصنوا عكا باصطلاح الافرنج

الثاني الستة مراكب التي توجهت من الاسكندرية فيها المدافع الكبار أخذها الانكليز قدام يافا

الثالث الطاعون الذي وقع في العسكر ويموت كل يوم خمسون وستون عسكرياً

الرابع عدم الميرة لخراب البلاد قريب عكا

الخامس وقعة مراد بك مع الفرنساوية في الصعيد مات فيها مقدار ثلثمائة فرنساوي

السادس بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الصعيد

السابع المغربي محمد الذي صار له جيش كبير وادعي أنه من سلاطين المغرب

الثامن ورود الانكليز تجاه الاسكندرية ودمياط

التاسع ورود عمارة الموسقو قدام رودس

العاشر ورود خبر نقض الصلح بين الفرنساوية والنيمساء

الحادي عشر ورود جواب مكتوب منا لتيبو أحد ملوك الهند كنا أرسلناه قبل توجهنا لعكا

الثاني عشر موت كفرللي الذي عملت المتاريس بمقتضي رأيه وإذا تولي أمرها غيره يلزم نقضها ويطول الأمر وكفرللي هذا هو المعروف بأبي خشبة المهندس

الثالث عشر سماع أن رجلاً يقال له مصطفي باشا أخذه الانكليز من اسلامبول ومرادهم أن يرموه علي بر مصر

الرابع عشر أن الجزار أنزل ثقله بمراكب الانكليز وعزم علي أنه عندما تملك البلد ينزل في مراكبهم ويهرب معهم

الخامس عشر لزوم ومحاصرة عكا ثلاثة شهور أو أربعة وهو مضر لكل ما ذكرناه من الأسباب انتهي

وفي يوم الثلاثاء سابعه حضر جماعة أيضاً من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنساوية أنه وصل إلي الصالحية وأرسل دوجا الوكيل ونبه علي الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقه حضرت من عنده يأمر بذلك

معركة أبو قير البرية ورحيل نابليون :

وصل جيش عثماني بحراً إلي أبي قير وقام باحتلال قلعتها يوم ١٧ يوليو سنة ١٧٩٩ م مما اضطر نابليون إلي التوجه إلي الإسكندرية وهاجم الجيش العثماني بشراسة و (كانت هزيمة العثمانيين في هذه الموقعة أشبه بكارثة فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف وبلغ عدد الأسري نحو ثلاثة آلاف وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثماني وذخائره وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلاً وجرح منهم سبعمائة وخمسون)[٦٢] وبعد هذه المعركة قرر نابليون السفر إلي فرنسا نظراً لاضطراب الأحوال بها وترك قيادة الحملة إلي الجنرال كليبر كما أعطاه الإذن للتفاوض مع العثمانيين واتخاذ القرار المناسب بل إن نابليون نفسه عرض الصلح علي العثمانيين قبل سفره وترك رسالة بمثابة شرح وافي لجميع التفاصيل لكليبر كما ترك رسائل أخري لعدة جهات منها الجنرالات والمشايخ وكل رسالة لها مضمون يتناسب مع المرسل إليه ، أما أهم هذه الرسائل فتلك التي تركها لكليبر وكان سفر نابليون في البحر بمثابة مخاطرة كبيرة بحياته نظراً لوجود الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط حيث ذكر لكليبر في نهاية رسالته (أما أنا فإني أغادر مصر والأسف يملأ قلبي – – وإن مصلحة الوطن ومجده وواجب الطاعة لندائه والحوادث المحزنة التي وقعت أخيراً كل ذلك يلجئني إلي أن أغامر بنفسي وسط أساطيل الأعداء لأصل إلي أوروبا علي أني سأكون معك بقلبي وفكري)[٦٣]

تأملات فيما حدث أمام عكا وسر سفر نابليون فجأة :

يمكنك أن تلاحظ معي عزيزي القارئ أن الدولة العثمانية فشلت فشل ذريع في طرد الحملة الفرنسية من مصر ثم أدركت أن ذلك لابد أن يتم بمساعدة بريطانيا وهذا ما حدث بالفعل كما سنري وقد أشار نابليون بالفعل إلي تحصين عكا باصطلاح الإنجليز وهو ما يؤكد وجود دعم بريطاني لعكا من اتجاه البحر وبالتالي كان الحصار من البر فقط ، ونلاحظ أيضاً ركاكة الرسالة وسوء مستوي الترجمة نظراً لمقتل المترجم الخاص بنابليون والذي أشار إلي مقتله في أسف (منتورة مات) ، كما أن هزيمة الجيش العثماني في معركة أبي قير البرية وأسر قائده

---

[٦٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٦٨

[٦٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٨٧

ومقابلته لنابليون أتاح للأخير معرفة الموقف الدولي الذي هو معزول عنه تماماً والأحوال في أوروبا بشكل عام وشعر بأهمية سفره لإنقاذ الموقف هناك

تعجب الجبرتي من سفر نابليون في البحر مع تربص الأسطول الإنجليزي :

ذكرنا أن الأسطول البريطاني قام بتدمير أسطول وسفن الحملة الفرنسية في معركة أبي قير البحرية الشهيرة وبالتالي تم عزل الحملة تماماً عن الوطن الأم في فرنسا ، وبالرغم من ذلك سافر نابليون عندما شعر بضرورة توجهه إلي فرنسا في ذلك الوقت فقام بترك عدة رسائل أهمها بالطبع للجنرال كليبر الذي قرر أن يخلفه في قيادة الحملة ، وسافر في سرية تامة إلي فرنسا ، وقد حاول الجبرتي الوقوف علي ملابسات هذا الموضوع كمؤرخ ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وفيما يلي رواية الجبرتي وهو يكتب عن أحداث هذا اليوم فيقول :

وفيه ورد من بونابارته ساري عسكر الفرنساوية كتاب من الإسكندرية خطاباً لأهل مصر وسكانها ، فأحضر قائمقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب ، مضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادي عشرين الشهر المذكور إلي بلاد الفرنساوية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر فيغيب نحو ثلاثة أشهر ، ويقدم مع عساكره فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفوا له ملك مصر ويقطع دابر المفسدين ، وأن المولي علي أهل مصر وعلي رياسة الفرنساوية جميعاً كليبر ساري عسكر دمياط ، فتحير الناس وتعجبوا في كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب الانكليز ووقوفهم بالثغر ورصدهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفاً وشتاء ، ولكيفية خلوصه وذهابه أنباء وحيل لم أقف علي حقيقتها

وفي يوم السبت تاسع عشرينه قدم ساري عسكر كليبر صبيحة ذلك اليوم فضربوا لقدومه المدافع من جميع القلاع وتلقته كبار الفرنساوية وأصاغرهم وذهب إلي بيت بونابرته الذي كان ساكناً به وهو بيت الألفي بالأزبكية وسكن مكانه ،

وفيه ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة ساري عسكر الجديد للسلام عليه فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ووعدوا إلي الغد ، فانصرفوا وحضروا في ثاني يوم فقابلوه فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته ، فإنه كان بشوشاً ويباسط الجلساء ويضحك معهم [٦٤]

---

[٦٤] نقلاً عن كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار – عبد الرحمن الجبرتي – صفحة ٥٢٣

٧. الفصل السادس

الحملة تحت قيادة الجنرال كليبر

كليبر يحاول التفاوض مع العثمانيين :

هوالجنرال جان باتيست كليبر – Jean-Baptiste Kléber ، **ولد في** 9 **مارس** 1753 **وقتل في** 14 **يونيو**1800 ، **وقد أيقن كليبر أن احتلال مصر والبقاء بها شبه مستحيل مع انقطاع الاتصال مع فرنسا فلا يوجد أسطول قوي يؤمنه هو وجنوده كما أن هناك عداء شديد بين الشعب المصري وبين الحملة الفرنسية ولم تعد تنجح محاولات الخداع والتودد للشعب فقد ظهر الوجه القبيح للحملة الفرنسية ولم يعد ممكناً وضع أي نوع من أنواع الأقنعة الزائفة ، وبالتالي قرر الصلح مع الدولة العثمانية التي فشلت في إخراج الحملة الفرنسية من مصر وحدها وقررت التحالف مع الإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر وكان هذا التحالف بطبيعة الحال من أشد ما يقلق كليبر ،**

الجنرال كليبر

وأرسل كليبر رسالة إلي الصدر الأعظم يوسف باشا الذي جاء علي رأس جيش ضخم ، وبالفعل تم الاتفاق علي ما يسمي بمعاهدة العريش التي كانت تنص علي أن يغادر الجيش الفرنسي مصر سالماً بسفن يتم توفيرها من الجانب العثماني وبتكاليف يتم دفعها وجمعها من الشعب المصري وقد كان شعب مصر سعيداً بجمع أموال ترحيل الفرنسيين ، ولكن لم تتم هذه المعاهدة بسبب الإنجليز حيث كانوا يريدون أن يقوم الجيش الفرنسي بتسليم نفسه كأسري حرب ولا يريدون له الرحيل بهذا الأسلوب ونجح الإنجليز بالفعل في إفشال المعاهدة مما أدي إلي حدوث معركة بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي في منطقة عين شمس حيث كان الجيش العثماني قد اقترب كثيراً من العاصمة وفي انتظار استلامها من الفرنسيين

معركة عين شمس وثورة القاهرة الثانية :

انتصر كليبر علي الجيش العثماني في معركة عين شمس انتصار ساحق وقام بمطاردته في اتجاه الشرق غير أن مجموعة من الجيش العثماني بقيادة نصوح باشا تركت ساحة القتال

وتوجهت إلي القاهرة حيث أثار نصوح باشا الشعب ضد الفرنسيين ، فعندما عاد كليبر إلي القاهرة بعد مطاردته للجيش العثماني وجد القاهرة كلها في حالة ثورة عارمة وهي المعروفة بثورة القاهرة الثانية والتي كانت بمساعدة العثمانيين وتحريضهم ، حيث قام كليبر بقمع الثورة بشكل وحشي واستخدم ما أعده نابليون من قلاع وتجهيزات حول العاصمة بعد ثورة القاهرة الأولي ، وجدير بالذكر أن الثورة لم تكن بالقاهرة وحدها بل امتدت إلي عدة مدن وقري بطول مصر وعرضها وبالتالي كانت في منتهي الخطورة مما أدي إلي رد فعل فرنسي عنيف وقاسي ، واستطاع كليبر إخضاع الوجه البحري بالكامل أما الوجه القبلي بقيادة مراد بك فقد يأس تماماً من إخضاعه ولذلك قام بعقد اتفاقية مع مراد بك بحيث يتولي مراد حكم الصعيد ويأمن جانبه بل واتفقا علي الدفاع المشترك ضد أي عدوان علي أي منهما وهكذا اتضحت حقيقة مراد بك الذي اتفق مع الفرنسيين علي أن يقوم بإمداد الفرنسيين بالكميات اللازمة من القمح والشعير والحبوب من الجنوب وكان قبل ذلك يمنع وصولها إليهم ، وهكذا قام كليبر بتحييد مراد بك تماماً

<u>الفظائع الفرنسية في قمع الثورة :</u>

ولا بد هنا أن نذكر بعض ما ارتكبه الفرنسيون من جرائم لا تمت للإنسانية بصلة بل وتزيد بشكل مبالغ فيه عن متطلبات قمع الثورة ، حيث وصفها الجبرتي باستفاضة ملخصها ما يلي (وجري علي الناس مالا يسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب) وكتب الرافعي (أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلي الطريقة الوحشية التي اتبعوها في كثير من المواطن وهي إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها علي المدينة وأهلها موتاً أحمر فأحدثت الحرائق تخريباً فظيعاً في القاهرة واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها)[٦٥] وهكذا تم إخماد الثورة (وأصبح الجنرال كليبر حاكماً بأمره في البلاد وهو الذي كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ولكن السياسة الإنجليزية هي التي غيرت سير الأمور وتسببت في نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلي فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية)[٦٦] ولعلك تلاحظ معي عزيزي القارئ أن الإنجليز حتي الآن لم يشتركوا في قتال حقيقي مع العثمانيين ضد الفرنسيين علي أرض مصر ولكنهم كانوا يكتفون بتحريك الأحداث والمراقبة ، وسوف تلاحظ بعد ذلك أن هناك فرق كبير بين قتال العثمانيين وحدهم ضد الفرنسيين وبين القتال المشترك مع الإنجليز ضد

---

[٦٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٥٠

[٦٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٥٢

الفرنسيين حيث كانت المعارك تدور بقيادة إنجليزية تساعد الدولة العثمانية التي أصبح يطلق عليها الرجل المريض

مقتل كليبر وتولية الجنرال مينو القيادة :

كان لابد من الإطاحة بالطاغية الذي لا يهتم بإراقة دماء الآلاف من الآمنين في بيوتهم والذين حتي لم يشتركوا في أي ثورة من أي نوع وتم قتلهم بدم بارد ، وقد استطاع أحد طلبة الأزهر الشريف وهو سليمان الحلبي أن يقتل رأس "الأفعى الفرنسية" الجنرال كليبر ، وكان هذا العمل البطولي الرائع من الأعمال التي هزت كيان الجيش الفرنسي بالكامل في مصر بل وكان ذلك تمهيداً لنهايتهم في مصر حيث لم يجد الفرنسيون قيادة بعد ذلك علي نفس مستوي نابليون وكليبر مما أدي إلي فشل الحملة في مصر ، ووقع هذا الحدث في حديقة منزل القائد العام بالأزبكية وتم محاكمة سليمان الحلبي وبعض طلبة الأزهر الذين اتهمهم الفرنسيون بأنهم علموا نية سليمان الحلبي ولم يقوموا بالإبلاغ عنه ، وتولي الجنرال مينو القيادة العامة للجيش الفرنسي في مصر ولكن ليس بسبب كفاءته ولكن لمجرد أنه أقدم الجنرالات المتبقين في مصر[٦٧] ، وقبل أن نترك مسألة مقتل كليبر وإعدام سليمان الحلبي وبعض طلبة الأزهر ،أريد أن أذكر لك نص الحكم الذي أصدرته المحكمة فقد (حكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمني ثم إعدامه علي الخازوق وترك جثته تأكلها الطير وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزي" ولم يكن له مال")[٦٨] واعتبر الفرنسيون الجامع الأزهر مصدراً للعنف

الحرص علي تنفيذ محاكمة عادلة :

وبتأمل هذه الأحكام نجد أن الفرنسيين كانوا حريصين علي الوصول للحقيقة ومعرفة الفاعل الحقيقي والمحرض الحقيقي وكل ذلك بتحقيق وتحريات دقيقة لتكون محاكمة عادلة ، فلقد كان من السهل جداً أن يتم إعدام سليمان الحلبي ومعه مجموعة كبيرة من طلبة الأزهر عشوائياً أو حتي بالضغط علي بعضهم للاعتراف وتنتهي القضية علي النحو الذي يرضيهم ، ولكن كان حرصهم علي تنفيذ محاكمة عادلة احتراماً لكليبر نفسه قبل أي شئ وهو ما يدعو للتأمل بالفعل

---

[٦٧] لاحظ معي عزيزي القارئ أن نابليون قد اختار كليبر لقيادة الحملة ولكن لم يتمكن كليبر من اختيار من يصلح لخلافته فاضطر الجنرالات باختيار أقدمهم ، بينما قيادة حملة كهذه يجب أن لا تخضع للأقدمية ولكن للكفاءة وقد فشلت الحملة بالفعل كما سنري

[٦٨] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٧٠

إقفال الأزهر (بيدي لا بيد عمرو) :

كان الفرنسيون كل فترة يفتشون الأزهر وينتهكون حرمته ويضيقون الخناق علي من فيه بحجة التفتيش علي الأسلحة ، مما أدي إلي اتخاذ المشايخ قرار بإغلاق الجامع الأزهر ورأوا أن هذا القرار سيحمي الأزهر من هذه الانتهاكات التي لا تليق به ويمنع الريبة التي كانت في نفوس الفرنسيين في كل ما هو أزهري ، وقدم العلماء هذا الاقتراح للفرنسيين وبالطبع وافق الفرنسيون علي طلبهم وتم إغلاق الأزهر من ٢١ يونيو ١٨٠٠ م إلي أن صدر قرار بفتحه في يونيو سنة ١٨٠١ في نهاية الحملة الفرنسية

٨. الفصل السابع

الجنرال مينو والأيام الأخيرة للحملة في مصر

الجنرال مينو والعبث بالشعب المصري :

تولي الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية Jacques François Menou

وكان مينو قد أعلن إسلامه وتزوج من مسلمة من رشيد أثناء وجوده كحاكم لرشيد وتظاهر بتمسكه بشعائر الدين الإسلامي وأطلق علي نفسه اسم " عبد الله جاك مينو " وكان مينو بعد توليه حكم مصر يعتقد أن الفرنسيين لابد أن يقيموا في مصر بشكل دائم فقد كان (من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية)[٦٩] ، وفرض مينو علي المصريين ضرائب وإتاوات فادحة وذاق الشعب المصري المرار وكثرت هجرة المصريين من بلادهم هرباً من كثرة المظالم والنهب والإرهاق والتخريب وكانت سياسة مينو بصفة عامة تنم عن أنه قائد فاشل بالرغم من أنه حاول القيام بعدة مشروعات في مصر وسوف أذكر لك مثال واحد فقط قد يكون فيه الكفاية فقد (فكر في إنشاء مصنع للجوخ في القاهرة لسد الحاجة الماسة إلي الأجواخ التي انقطع ورودها من أوروبا بسبب الحصار البحري لكن أعضاء اللجنة الإدارية عارضوا في قبول العمال المصريين في هذا المصنع بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها : إن مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية)[٧٠]

الجنرال مينو

الدولة العثمانية تستعين بالإنجليز في تحالف لطرد الفرنسيين من مصر :

تم إجراء استعدادات ضخمة عثمانية إنجليزية لطرد الفرنسيين من مصر ووصلت بالفعل قوات إنجليزية إلي أبى قير واستطاعت هزيمة من بها من الفرنسيين وواصلت الزحف ووقعت معركة شرسة في المنطقة المعروفة حالياً بسيدي جابر بالإسكندرية وانتهت بهزيمة الفرنسيين هزيمة قاسية علي الرغم من كثرة عدد القتلى الإنجليز وظل الصراع دائر بين الإنجليز والفرنسيين في

---

[٦٩] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٧٩

[٧٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٨٩ ، ١٩٠

الإسكندرية مما أدي إلي ارتباك الجنرال مينو بالقاهرة وكان مينو أقل كفاءة بكثير من نابليون وكليبر في القيادة فقام بإصدار أوامر متضاربة وتشتت جيشه في عدة مواقع ومدن (فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة والجيزة والصالحيه والمنصورة وميت غمر ومنوف والبرلس والرحمانية والوجه القبلي ولما تحقق مينو من نزول الإنجليز إلي البر عزم آخر الأمر علي السير لملاقاتهم)٧١ ووصل مينو ومعه نصف الجيش الفرنسي إلي الإسكندرية ولكن بعد أن تم هزيمة الفرنسيين بمعركة سيدي جابر

مينو في الإسكندرية وبليار في القاهرة :

وهكذا انقسم الفرنسيين تحت قيادتين أحدهما الجنرال مينو في الإسكندرية والثاني الجنرال بليار في القاهرة وكان كل منهم يواجه جيشاً كبيراً ، وكان العثمانيون قد هزموا جيش بليار بالقرب من بلبيس فعاد منسحباً وتحصن بالقاهرة بينما كان مينو يواجه التحالف العثماني الإنجليزي في الإسكندرية ، وجدير بالذكر أن بليار أرسل إلي مراد بك يستنجد به ويطلب منه تنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك التي وقعها مع كليبر ، ولكن كان مراد بك في ذلك الوقت قد أصابه الطاعون ومات وكان موت مراد بك ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين علي حد تعبير الرافعي لأنهم فقدوا بموته حليفاً قوياً كان يمكن أن يمدهم بالقوة اللازمة ولم يتمكن الفرنسيين من التحالف مع خليفة مراد بك وكان اسمه عثمان بك الطنبورجي الذي رأي أن كفة العثمانيين والإنجليز هي الأرجح

استسلام القاهرة قبل الإسكندرية :

اجتمع الجنرال بليار مع مجلس الحرب ليتشاوروا في الموقف الحرج الذي تورطوا فيه وقرروا التفاوض مع العثمانيين والإنجليز وتم بالفعل توقيع اتفاقية الجلاء في ٢٧ يونيو ١٨٠١ بعد مفاوضات استمرت أربعة أيام (وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلي فرنسا علي نفقة الحلفاء)٧٢ وقام العثمانيون والإنجليز بتوفير المراكب والسفن اللازمة لرحيلهم ، علي أن يسري هذا الاتفاق بين بليار والحلفاء علي الجنرال مينو وجيشه بالإسكندرية في حالة موافقته علي بنوده ، ولكن مينو عندما بلغه هذا الاتفاق رفضه تماماً بل واتهم بليار بالتفريط في الشرف الحربي ، واستمر مينو في عناده وقتاله للحلفاء (علي أنه لم يمض خمسون يوماً علي تسليم القاهرة حتي أذعن الجنرال مينو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التي قبلها الجنرال بليار)٧٣ وهكذا

---

[٧١] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٩٧

[٧٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢١٧ ، ٢١٨

[٧٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٢٣

غادرت الحملة الفرنسية مصر بغير رجعة ولكن بعد أن لفتت نظر بريطانيا العظمي لموقع مصر الذي أصبح حلماً لبريطانيا قامت بتحقيقه بعد ذلك في سنة ١٨٨٢ م

ملخص عام للحملة الفرنسية :

تلاحقت الأحداث في مصر خلال الحملة الفرنسية وتطورت الحملة وتوجهت إلي الشام وفشلت في احتلال عكا وعادت إلي مصر ثم وقعت معركة أبو قير البرية بين نابليون والجيش العثماني وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم غادر نابليون مصر وترك القيادة للجنرال كليبر الذي حاول التفاوض مع العثمانيين لانسحاب الحملة من مصر دون خسائر ولم يرغب الإنجليز في مغادرة الحملة بهذا الأسلوب حيث رغبت في استسلام الجيش الفرنسي كأسري حرب فقامت بإفشال المفاوضات بين الفرنسيين والعثمانيين ووقع الصدام بين كليبر والعثمانيين في معركة عين شمس وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم قامت ثورة القاهرة الثانية بمساعدة العثمانيين وقام كليبر بقمعها بقسوة أشد من قمع الثورة الأولي التي كانت في عهد نابليون ، ووقع كليبر معاهدة مع مراد بك لما كان يسببه من مشاكل وخسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر ولتحييده أثناء قتال العثمانيين ، ثم تم قتل كليبر علي يد سليمان الحلبي أحد طلبة الأزهر وتم تولي الجنرال مينو قيادة الحملة وأعلن إسلامه وتزوج من فتاة من رشيد ثم واجه التحالف الذي تم بين العثمانيين والإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر واستمر الصراع إلي أن قام الإنجليز والعثمانيين بهزيمة الفرنسيين في الإسكندرية وفي الوقت الذي استسلم فيه القائد الفرنسي في القاهرة وانسحب بالقوات الفرنسية تاركاً مينو في الإسكندرية يواجه قوات التحالف الإنجليزي العثماني ثم أجبرته الهزيمة علي توقيع معاهدة استسلام وتم مغادرة الحملة بالكامل إلي فرنسا تاركة عدة قوي تتصارع في مصر علي السلطة ، وهكذا انتهت الحملة الفرنسية علي مصر

الحملة الفرنسية ودورها في إيقاظ قوة الشعب :

(جلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين فتنازع السلطة في البلاد ثلاث قوات مختلفة المصالح متباينة الأغراض ، اتحدت وقتاً ما علي محاربة الفرنسيين ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل علي تحقيق أطماعها في وادي النيل هذه القوات الثلاث هي الأتراك والإنجليز والمماليك)[٧٤] هذا ما ذكره الرافعي في كتابه كما ذكر أيضاً ما يلي (تلك القوات التي تنازعت النفوذ والسلطة في مصر وهناك قوة رابعة ظهرت علي مسرح النضال السياسي وأخذت تنمو ويشتد ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوات الثلاث أو تحسب لها

[٧٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٢٩

حساب علي أنها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقها الشرعي في تقرير مصير البلاد وتلك هي قوة الشعب المصري)[٧٥] وكان بالطبع علي رأس هذا الشعب مجموعة من الزعماء البارزين مثل السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد الأمير والشيخ سليمان الفيومي والشيخ مصطفي الصاوي والشيخ محمد المهدي والسيد أحمد المحروقى ، أما الشخص الوحيد الذي استطاع أن يكسب ثقة الشعب المصري متمثلاً في زعماءه واستطاع بهذه القوة الرابعة التي راهن عليها أن يواجه باقي القوي الأخري ويفوز بحكم مصر هذا الشخص هو محمد علي باشا الذي حضر إلي مصر عندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر وطلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلي هذا الجيش (صدر الأمر إلي متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها)[٧٦] ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلي أبي قير في شهر مارس سنة ١٨٠١ م علي متن السفن العثمانية وقد عاصر محمد علي عندما حضر إلي مصر كل الأحداث التي تكلمنا عنها وحتي جلاء الحملة الفرنسية والفترة التي تلت رحيل الحملة الفرنسية مباشرة وحتي وصوله للحكم لتبدأ مصر فترة جديدة من تاريخها وتحاول البحث عن هويتها التي كادت أن تضيع وسط كل هذه التقلبات والصدامات الحضارية والصراعات علي السلطة ، فهل هي دولة مصرية ذات قومية خاصة لا علاقة لها بسائر الدولة والولايات الإسلامية كما أراد لها نابليون ورجاله ، أم هي جزء من الأمة الإسلامية الواحدة المترابطة والتي كانت في حالة من التخلف والتراجع الحضاري في ظل الحكم العثماني الضعيف الذي كان يعتبره الشعب المصري مثلاً حياً للظلم والجور والقسوة ، لقد كانت بالفعل حيرة شديدة ولطمة حضارية قاسية علي وجه الشعب المصري أفقدته اتزانه وهزت ثوابته الرئيسية ربما إلي الآن ، وعندما جاء محمد علي للحكم ألقي بنفسه في أحضان الحضارة الغربية دون مراعاة لهذه الثوابت وفتح شبابيك مصر بعد عزلة طويلة علي العالم الغربي وأرسل البعثات العديدة ليستمد منه النهضة علي الطريقة الأوروبية مما أدي إلي استقدام الحضارة الغربية ومعها أفكار أخري تمس أمور حساسة جداً في تشكيل العقل المصري وهويته ، وقد قبل المصريون من محمد علي لأنه حاكم مسلم ما لم يقبلوه من نابليون فأصبح محمد علي امتداد ثقافي للحملة الفرنسية علي مصر وفي النهاية فشل محمد علي في تحقيق أحلامه التي أطاحت بها أوروبا حيث وقفت معه في البداية ضد الدولة العثمانية ثم وقفت مع الدولة العثمانية ضده كما نعرف جميعاً ، ولكن هذه قصة أخري ،

---

[٧٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٣٢

[٧٦] تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٨

وبعد أن تأملنا أهم أحداث الحملة الفرنسية حان الوقت لنتأمل اللطمة الحضارية الفرنسية التي أصابت وجه مصر

٩. الفصل الثامن

لطمة حضارية علي وجه مصر

الفجوة الحضارية بين مصر وفرنسا :

في هذا الفصل سنستعرض معاً ونتأمل حجم الفجوة الحضارية بين مصر وفرنسا في ذلك الوقت وكيف أن مصر كشعب لم يكن له أي ذنب في ذلك ، وسوف نوضح مدي انبهار المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي بما شاهده من أمور جعلته يعترف ويقول أنها أمور لا تسعها عقول أمثالنا ، ولاحظ أن الجبرتي لم يكن من طبقة العامة والغوغاء ولكنه يعتبر محسوب علي النخبة المثقفة في مصر فإذا حدث له هذا الانبهار وتلك الدهشة فما الذي حدث لباقي البسطاء من الشعب المصري ؟

عربة يد ذات عجلة أمامية واحدة تبهر الجبرتي :

الكاتب الكبير يحيي حقي يكتب[٧٧] عن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي ، في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر وتحت عنوان ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م ، فيما يلي ملخص قصير مما كتبه عن الجبرتي :

، -- من حسن الحظ أن كان يعيش في مصر حينئذ رجل ، لا أعرف من أجدادنا أحداً يفوقه في قدرته علي تملك حبي وإعجابي وعلي تثبيت الإعتزاز ببلدي في قلبي ، هذا هو الجبرتي مؤرخ مصر العظيم ، ومن حسن الحظ أيضاً أنه كان يمثل أرقي ما وصلت إليه الحضارة الشرقية - - - - - بل إن المهم أن ذهنه كان متفتحاً لا يشله الغرور أو التعصب ، فنحن بإزاء شهادة رجل مثقف متزن حكيم نشأ في بيت من أرقي بيوت القاهرة في ذلك العهد ،

إنني اعتبر يوم ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م من أهم أيام مصر الحديثة ولهذا اتخذته عنواناً لهذه الكلمة ، ففي ذلك اليوم خرج الجبرتي من داره ليتفرج علي ما يفعله الفرنسيون في هدم المباني لشق طرق حديثة في قلب العاصمة ، - - - - فلما رجع لداره كتب لنا ما يلي :

- - فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن ، كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهيرة ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول ، المساعدة في العمل وقلة الكلفة ، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من الخلف يملؤها الفاعل تراباً أو طيناً أو حجارة من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض علي خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجري علي عجلتها

---

[٧٧] نقلا عن كتاب صفحات من تاريخ مصر -طبعة يناير ٢٠٠٨ - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- من صفحة ٣٥ وما بعدها وتحت عنوان ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م

بأدني مساعدة إلي محل العمل فيميلها بإحدي يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة وكذلك لهم فئوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع ، غالب الصناع من جنسهم ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية علي الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، ،

، ويعلق الكاتب الكبير يحيي حقي علي ما كتبه الجبرتي فيقول : هكذا كانت تعيش مصر في عالمها المقفل إلي حد أن عربة نقل صغيرة بعجلة أمامية واحدة بدت للجبرتي كأنها معجزة شيطانية ، ينبغي ألا نقتصر علي الابتسام بمحبة لسذاجة الجبرتي ، بل نتأمل قوله بإمعان ، ففي وصفه دلالة بينة علي الفروق العميقة بين عقلية الشرقي وعقلية الغربي ، فلو كان محله رجل أوروبي وشاهد مثلاً علي تفوق الإنتاج لما انشغل حتي ذلك الوقت إلا بحساب الفرق بين أجر العمل اليدوي والعمل الآلي ، وقاس هذا الفرق بمقياس الفائدة المئوية لقرض يستدينه لشراء الآلة الحديثة ولا يعكر مزاجه في التفكير في مصير العامل الذي ستوفره الآلة ، هذه هي العقلية التي قامت عليها عظمة النظام الرأسمالي ، وأما الجبرتي فإن أورد لفظ الكلفة في كلامه ، فمن الواضح أنه لم يكن معنياً إلا بأثر الآلة في التخفيف من سخرة الإنسان في العمل الجسماني - - - - لم يكتف الجبرتي بالفرجة علي شق الطرق يوم ٥ديسمبرسنة ١٧٩٨ فهو قد ذهب أيضاً في اليوم ذاته -ياله من يوم عظيم- إلي المجمع العلمي الفرنسي - - - ثم عاد لداره ووصف لنا ما شاهده بدهشة طفل ساذج كما سنري ، فهل أنا مبالغ إذا قلت إن الصدمة العقلية العنيفة بين الشرق والغرب حدثت يوم ٥ديسمبر١٧٩٨ ،

استيقظت مصر وأدركت أن هناك علماً حديثاً غير علمها القديم وأن هذا العلم الحديث - - هو سر غلبة الغرب علي الشرق ، مصر في ذلك اليوم هي الجبرتي[٧٨]

<u>اللطمة الحضارية :</u>

قام الجبرتي بزيارة المجمع العلمي الفرنسي[٧٩] وتم استقباله بحفاوة بالغة وترحاب لأن علماء فرنسا كانوا يرحبون بزيارة أي مصري يريد أن يتعرف علي المجمع العلمي حتي يصاب بذل الجهل وخضوع التخلف للتقدم علي ما يبدو فالإبهار العلمي من أقوي وسائل إخضاع الشعوب وتحطيم أي أمل لهم في المقاومة فعندما تشاهد بعينيك أموراً علمية تفوق إمكانياتك العقلية بكثير فبالتأكيد سوف ترهب فاعليها، أو قد يكون السبب في الترحيب مختلف لأن العلماء يهتمون بالعلم أكثر من أي شئ آخر ولا يوظفونه سياسياً أو عسكرياً

---

[٧٨] تأمل : (مصر في ذلك اليوم هي الجبرتي) يا له من تعبير رائع من أديب مبدع

[٧٩] كانت زيارة الجبرتي لهذا المجمع في إطار حرصه علي كتابة تاريخ مصر كشاهد عيان فرأي أن هذا يتطلب زيارته لكل الأماكن المسموح بزيارتها حتى يسجل كل ما يراه ويسمعه من باب الأمانة العلمية والله أعلم

أما الجبرتي فعندما وصف ما رآه في هذا المجمع وكتبه في كتابه الشهير كان في حالة من التعجب لا مثيل لها وسوف أنقل إليك عزيزي القارئ مقتطفات قصيرة مما كتبه الجبرتي عن هذا المجمع لتحكم بنفسك علي قوة اللطمة الحضارية التي تعرضت لها مصر علي وجهها المتخلف في ذلك الوقت ، يقول الجبرتي (وإذا حضر إليهم بعض "المسلمين" ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلي أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم مما يحير الأفكار)[٨٠] ، (ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخري فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتي انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه علي البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخري فجمد حجر أزرق وبأخري فجمد حجر أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه علي السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا ، وغير ذلك من أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدني شئ كثيف ويظهر له صوت وطقطقة وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخري ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا)[٨١]

ولا أجد ما أقول بعد كلام الجبرتي إلا رحم الله علماء الإسلام في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية رحم الله جابر بن حيان أستاذ الكيمياء الأول في الوقت الذي لم يعرف فيه العالم شيئاً عن الكيمياء ، ورحم الله ابن خلدون أستاذ علم الاجتماع ورحم الله الخوارزمي أبو علم الجبر وغيرهم من علماء بغداد والقاهرة في نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث الهجري ولا حول ولا قوة إلا بالله

---

[٨٠] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٥٧

[٨١] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٠

تعداد سكان مصر طبقاً لتقدير علماء الحملة الفرنسية [٨٢]:

يقول العالم الفرنسي ج دي شابرول : (كان تقدير عدد سكان مصر علي الدوام عرضة لأخطاء خطيرة ، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامي في مبالغات كبيرة يمكن لأي توصيف بسيط للأماكن أن يدحضها وإلي جانب الخدمات التي قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار في مصر ، فإنها قد حثت كذلك علي استخدام الإحصاء في الأبحاث والدراسات التي تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة ،وهكذا أمكن التوصل ليس فقط إلي تحديد مساحة الأراضي المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلي الموضوعية ، بل وكذلك عدد القري والكفور التي تغطي وادي النيل كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان في مصر ، وكذا تعداد سكان مدنها الهامة ،وبخلاف ما جمعته أثناء وجودي في مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التي كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان في مصر الحديثة مقارناً بتعداد السكان في مصر القديمة ،وحيث أن جومار قد أقام حساباته علي معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتي الآن ، وحيث أنه أبان عدد الموتي وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلي أمور أخري هامة ذات طابع اقتصادي وسياسي فإنه قد توصل بذلك إلي نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة ، - - -وسوف أكتفي هنا بإيراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل إليهما عن طريقين مختلفين: إن تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة ثم حصر عدد السكان في جزء محدد من مساحة البلاد يؤدي ، بعد تعميم هذه النسبة وإضافة الناتج الإجمالي إلي عدد سكان القاهرة ، إلي نتيجة شبه مؤكدة وهي أن تعداد سكان مصر يبلغ ٢٤٤٢٢٠٠ نسمة ،أما الطريقة الثانية فقد بنيت أن عدد قري مصر يبلغ ٣٦٠٠ قرية وأن متوسط سكانها هو ٥٣٤ شخصا لكل قرية ، أي أن تعداد سكان القري يبلغ ٢١٠٢٤٠٠ نسمة ، وبإضافة سكان المدن إلي ذلك الرقم فإن تعداد مصر يبلغ ٢٤٦٧١٠٠وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالي ٢.٥ مليون من السكان ولا يدخل ضمن ذلك مطلقاً عدد العربان الذين يعمرون الصحراوات والذين لا يمكن إخضاعهم لتعداد دقيق ، لكن مسيو جوبير Jaubert من جهة أخري يقدر عدد الفرسان العربان حسب الإحصاء الذي قام به بـ ٢٧٠٠٠ فارس ، فإذا ما أضفنا إليهم نفس العدد لأشخاص راجلين وعدداً يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال فإن مجموع تعداد أبناء قبائل العربان سوف يرتفع إلي ١٣٠٠٠٠ نفس ، - -كانت القاهرة في عام ١٧٩٨ تضم ما بين ٢٥٠-٢٦٠ ألفاً

---

[٨٢] من كتاب موسوعة وصف مصر – المصريون المحدثون – الجزء الأول –الطبعة الثالثة – ١٩٩٢ تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الكتاب الأول – دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثون – تأليف ج دي شابرول الفصل الأول – لمحة عامة عن الطقس والسكان وعن تقاليد وعادات المصريين – 2عن السكان وطبقاتهم المختلفة ، باختصار من صفحة ٢٢ إلي صفحة ٢٤ ------:

من الأشخاص بما في ذلكالمماليك والتجار الأجانب ، وقد قدر تعدادها بحسب إحصاء تم قبل مجئ الحملة الفرنسية بـ ٣٠٠٠٠ نسمة)

١٠. الفصل التاسع

مقتطفات من كتاب وصف مصر

علماء الحملة يدرسون شئون مصر :

في هذا الفصل سنستعرض ونتأمل معاً بعض ما كتبه علماء الحملة الفرنسية في كتابهم الموسوعي الضخم (وصف مصر) لنعرف حجم المجهود في هذا الكتاب ومدي تعمق هؤلاء العلماء في تفاصيل الشئون المصرية في كافة المجالات ، فبالرغم من أن نابليون قد أحضرهم في الأساس لحل مشاكل الحملة ، ولكنهم بدافع حب العلم لدراسة كل شئ في مصر وتسجيله ، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلي اللغة العربية بواسطة الأستاذ زهير الشايب ثم استكملت العمل فيه ابنته مني زهير الشايب وإليك أولاً بعض ما ورد في مقدمة هذا الكتاب الجليل ثم بعد ذلك سننقل بعض فقرات قليلة من الكتاب دون ترتيب معين لنتأملها معاً

من مقدمة كتاب وصف مصر :

كتبت الاستاذة **مني زهير الشايب في مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب وصف مصر في أكتوبر ١٩٩٢ ما ملخصه :**

لقد مضي علي صدور هذا الكتاب في طبعته الأولي من الترجمة العربية أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقي خلالها –ولا يزال– الاهتمام المتزايد من القارئين والمتخصصين ، ولعل السبب وراء هذا الاهتمام يتضح لنا مما ذكره فورييه في مقدمة الطبعة الفرنسية حيث يقول : (لم يسبق لأي بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلاً عن ذلك فليست هناك بلاد أخري جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم في الحقيقة كل الأمم المتحضرة) ، وإذا كان لعلماء الحملة الفضل والتقدير لتأليف هذا الصرح الفريد ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين –لا سيما المصريين– كي يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم ، الشامخ علي مر العصور ،

انتهي كلام أو بعض كلام الأستاذة مني زهير الشايب أما ما كتبه الأستاذ زهير الشايب نفسه في مقدمة كتابه في فبراير ١٩٧٦ فقد اخترت لك منه ما يتعلق بما ذكره علماء الحملة عن الدين الإسلامي من وجهة نظرهم وكيف عالج المترجم هذا الأمر حيث كتب ما يلي :

ولقد آثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصاً وروحاً لكل ما ذكره المؤلف خاصاً بنا وبمعتقداتنا ، وسوف يلاحظ القارئ أنني قد آثرت عدم التدخل إلا في أضيق نطاق ممكن لاعتبارات لا بأس من طرح بعضها :

١ – أننا هنا بصدد أثر علمي هام ينبغي أن يحظي بالاحترام

٢ – أنه ليس كل ما يقال عنا صحيحاً علي إطلاقه ، وإن كان ينبغي علينا في كل الأحوال ألا نخشي أية فكرة صحيحة

٣ – أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة ما يقال عنا ، فتجاهل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلي ، فذلك الموقف لن يعني إلا تسليمنا ولو بشكل سلبي بصحته ، ومعرفة ما يقال عنا هي أفضل وسيلة لمواجهته بل ودحضه

٤ – أن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم ، ولا أظن أحدا يجادل في قوة عقيدتنا وأنني فيما فعلت إنما كنت أصدر عن تقديس كبير للإسلام ولنبيه الكريم صلي الله عليه وسلم ، كما أنني واثق أنني فيما التزمت به من أمانة في النقل كنت أقرب ما يكون إلي روح الإسلام ، الذي ينهض أول ما ينهض علي الإقناع العقلي ، والذي كانت أول آية في كتابه الكريم تدعو إلي القراءة والفهم والذي لا يستوي –بنص آياته– الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،

وأضاف الأستاذ زهير الشايب في نهاية مقدمته ما يلي :

وبرغم كل شئ فإن واجب الأمانة يقتضي بأن أعترف بما يأتي :

١ – أنني قد حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضي حذفها

٢ – أنني حذفت هامشاً كاملاً أثار –عند نشره بمجلة الثقافة– ردود فعل لم أكن أتوقعها ، ولا يتجاوز هذا الهامش أربعة سطور

٣ – أنني حذفت آخر عبارة في الكتاب (حوالي سطر ونصف) إذ وجدت من الأفضل ألا تترك هذه الجملة طعماً مريراً في حلق القارئ ، بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه

إعجاب علماء الحملة الفرنسية بالصناعة المصرية :

ورد في كتاب وصف مصر ما يلي : (وقبل الدخول في تفاصيل فنون الصناعة ، ينبغي أن أنوه بالمقدرة المتميزة للغاية لدي الصناع المصريين ، فهم يملكون علي وجه الخصوص تلك الموهبة التي تثير إعجابنا لدي الصينيين ، موهبة المحاكاة المتقنة لأعمال الآخرين إلي درجة ينتج عنها في بعض الأحيان عدم القدرة علي التمييز بين التقليد والأصل ، ومن ناحية أخري فنحن نعرف أيضاً أن المصريين يعتادون العمل وهم جالسون ، وهم في نفس الوقت يعملون بخفة في صناعات مما لا يستطيع صناعنا أن يقوموا به في أوضاع مماثلة)[٨٣]

وهذه شهادة من علماء الحملة الفرنسية تؤكد أن المصريين كانوا علي أتم الاستعداد للتقدم في مجال الصناعة إذا اتيحت لهم الفرصة لذلك ولكن لم تكن هناك قيادة واعية توجههم

---

[٨٣] صفحة ٢٤٩ موسوعة وصف مصر – الجزء العاشر– تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

اندهاش علماء الحملة الفرنسية من التسامح بين الأديان في مصر :

علي عكس ما كانوا يعتقدون – ورد في كتاب وصف مصر ما يلي :

(----- وسنعجب لأن العامة الجاهلة الموسومة بالتعصب لا تلعن اليهود ، أو المسيحيين من الكاثوليك والأقباط والأرمن والسوريين والروم .. إلخ ، لأنها ألفت مشاهدتهم في جميع الأيام منتشرين بأعداد كبيرة ، يتاجرون بحرية في الشوارع والأسواق والأماكن العامة ، وتنتشر الأحياء التي يسكنها الأقباط والإفرنج والروم واليهود في كل أجزاء المدينة ، دون أن تحميها أية أسوار خاصة ، وكل طائفة لها كنائسها التي تمارس فيها شعائرها في سلام ، ودون أي نوع من المضايقات ، وهذه أيضاً مسألة لدينا عنها في أوروبا تصورات قل أن تطابق الواقع – – وتقع حارة النصارى – أحد أحياء الأقباط – جنوب ميدان الأزبكية أما أكبر أحيائهم التي تحمل هذا الاسم فيقع شمال هذا الميدان نفسه – – وللمسيحيين الروم كنيستهم قرب الحمزاوى في الغرب ، ولهم أيضاً حي يسمي حارة الروم إلي الشرق من السكرية – – والحي اليهودي – حارة اليهود – شديد الاتساع والازدحام – ومن اللافت للنظر بدرجة كبيرة أن يوجد مسجد في قلب هذا التجمع اليهودي الكثيف ويوجد بالحي اليهودي عشرة معابد –)[٨٤]

جانب من وصف التجارة المصرية بموسوعة وصف مصر :

كما ورد بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر – صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧ ما ملخصه كالآتي : (– – – وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساساً علي : الأرز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة ، وكانت الحنة مرغوبة بكثرة في كل البلاد ، وكان جزء من مالية مصر يذهب إلي تركيا لتسديد الجزية التي يدفعها الباشا للسلطان ، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان ، حتي يثبت في مكانه ، – – – وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر بشكل كبير[٨٥] إذ لم تكن مصر تدفع أموالاً علي الإطلاق ، وكان المقابل دائماً يتم في صورة بضائع ، بينما كانت أوروبا مضطرة في معظم الأحيان إلي دفع الأموال ، وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية والخرز والمرايا ، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأواني الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، – – أما تجارة الهند ومكة – علي العكس من ذلك – مكلفة لمصر – – ولكي نعطي للقارئ فكرة موضوعية عن تجارة مصر

---

[٨٤] موسوعة وصف مصر – مقتطفات مختارة من الجزء العاشر – تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

[٨٥] أرجو أن تتأمل عزيزي القارئ هذه الجملة (وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر)

، نضع تحت يده جداول مختلفة ، نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التي تغذي هذه التجارة ، وتعود هذه الأرقام إلي عام ١٧٧٥م ، - - - - وقد أورد علماء الحملة الفرنسية هذه الجداول من صفحة ٢٥٨ إلي صفحة ٢٦٣ بالجزء الأول من الموسوعة -)[٨٦]

عندما كانت فرنسا تستورد القمح المصري :

ورد في كتاب وصف مصر وتحديداً في الجزء الرابع الذي يصف الزراعة والصناعات والحرف والتجارة في مصر ، بيان ما تقوم مصر بتصديره واستيراده من أصناف وأنواع التجارة المختلفة ، ومما يلفت النظر ما جاء تحت عنوان (تجارة مصر مع فرنسا) فقد كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي :

الواردات :

كان يصدر من فرنسا إلي القاهرة سلع مختلفة تنتجها المصانع الوطنية بالإضافة إلي بضائع متنوعة ، قادمة من بلاد أجنبية ، وخزنت في مرسيليا ، وكانت أهم البضائع الفرنسية تشتمل علي أجواخ لانجدوق المعروفة باسم لندران درجة أولي وثانية ، وكذلك علي أجواخ من سيدان ومن لوفييه وآب فيل ، ومنسوجات من ليون محلاة بجالونات ذهبية وفضية ، - - - - ثم يستمر المؤلف الفرنسي في وصف المنتجات التي تقوم مصر باستيرادها من فرنسا إلي أن يصل إلي بند الصادرات المصرية إلي فرنسا فيقول :

الصادرات :

تصدر مصر إلي فرنسا : الأرز والقمح والزعفران وملح النشادر والنطرون والصودا والقطن المغزول والأقمشة القطنية والكتانية من مختلف الأصناف والسنامكي وجلود الجاموس والأبقار والجمال ، وبخلاف هذه السلع المنتجة أو المصنوعة في مصر كانت الأخيرة تصدر إلي فرنسا أيضاً السلع الآتية والتي كانت تعد مستودعاً لها ، وهي تشتمل علي السلع القادمة من أواسط أفريقيا ، عن طريق دارفور وسنار : الصمغ ، التمر هندي ، العاج ، ريش النعام ، وكمية ضئيلة من تراب الذهب (التبر) - - وكان الأرز يصدر في العادة عن طريق دمياط - - - أما القمح الذي يصدر إلي فرنسا فكان يخزن أولاً في رشيد ، ومن هناك يرسل في مراكب إلي أبي قير والإسكندرية ، ومنها يبحر القمح في السفن التي تشكل قافلة المشرق - - - وكانت السفن اليونانية علي وجه الخصوص ، ومن مختلف جزر الأرخبيل ، هي التي تستخدم في نقل القمح من فرنسا حين عانت إيطاليا من نقص الغلال - - في منتصف القرن الماضي ، وتقدر الكمية التي صدرت من القمح خلال سنوات القحط الثلاث ، والتي أصابت

[٨٦] نقلاً باختصار عن الجزء الأول من كتاب موسوعة وصف مصر – تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب

هذه المناطق ، بنحو ثمانين ألف أردب ، وفرض مراد بك ، وهو الذي كان يحصل علي عائد جمرك رشيد ، رسم خروج قدره ١٨٠ مديني عن كل أردب من القمح[٨٧]

وصف علماء الحملة الفرنسية للشعب المصري في ذلك الوقت :

من كتاب موسوعة وصف مصر – المصريون المحدثون – الجزء الأول –الطبعة الثالثة – ١٩٩٢تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب :

يوجد في مصر – شأنها شأن بقية بلدان الشرق – خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلي أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة ، وهل كان يمكن للأمر أن يكون علي نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ، فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان بمختلف أديانهم وأصولهم ، فنحن نجد في المدن – مع شئ من الاختلاف – نفس عادات الشعوب الشرقية ، ولقد كان هذا الاختلاف أمراً ضرورياً بسبب طبيعة التربة وتأثير الطقس ، أما في الريف وفي الصحراوات فسوف نتعرف علي رجل العصور الأولي ببساطة أذواقه ، هذا إذا لم تكن العصور المنصرمة قد تكفلت بإتلاف فطرته

ولا يمكنك أن تكشف ما يعتمل في نفس المصريين عن طريق ملامحهم ، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم ، أو كانوا في نشوة من سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد ، أو يغلون في داخلهم من الغضب أو يتحرقون للانتقام ، فليس ثمة مطلقاً فعل منعكس : احمرار في الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشي بصراع تلك العواطف العديدة التي تهزهم ويمكننا أن نلتمس أسباباً عديدة لهذا الجمود المذهل في الملامح ، قد لا يكون الطقس بعيداً عن هذه الحالة ، فحيث يبدو الطقس علي الدوام بنفس الشكل فإنه ينقل إلي النفوس – علي نحو ما – ثباته الدائم ، ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد في شكل التربية ،وفي الاعتقاد في القضاء والقدر والمنتشر بين كافة الناس ، كما تعود في النهاية إلي تعودهم أن يكونوا علي الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ، ففي كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين ، والشرقيين عموماً ، نوعاً من الحيلة لمواجهة هذا العسف ، فعندما يعاقب الإنسان علي حركة أو بسبب نظرة – – فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة علي الاستيعاب بحيث تصبح هذه

---

[٨٧] نقلاً عن كتاب (موسوعة وصف مصر– جزء الزراعة والصناعة والتجارة) تأليف ب س جيرار من علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الجزء الرابع– مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ – مقتطفات من صفحة ٣٠٤ إلي صفحة ٣١٠

الأمور حالات عادية ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمراً بالغ التناقض مع تقاليدنا ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهل ،

- - وبرغم من ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية علي ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم علي العكس ، وحيث يمكنهم بذلك تركيزها ، - -إن ملكة الانتباه والقدرة علي التذكر ، تذهب إلي أبعد مدي عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة ،

إن كل شئ في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوروبيين

(- - وهذا يبرهن علي ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدي – بسهولة فائقة – إلي أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التي فقدها ، بل التي لا يظنها هو نفسه كامنة فيه[٨٨] ، كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التي خنقتها إلي حين تلك الأنظمة الشيطانية التي يرزح تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة علي تدمير أخلاقيات الأفراد بشكل محزن - - -)

<u>علماء الحملة الفرنسية يوضحون أسباب عدم تكاثر المماليك في مصر :</u>

وإليك بعض ما ورد في كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع :

- - - - يمكن للزوجة المصرية أن تصبح أماً فيي سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة .

وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة علي خصوبتها المذهلة - -

ولكننا نستطيع القول – لكي نقدم نسبة دقيقة – بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلاً كل ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن ، أو اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة ، ، ، والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، - - - -

وتتم الولادة عن طريق القابلات وهي علي الدوام حوادث سعيدة ، وعندما لا تستطيع امرأة – بعد أن تكون استنفذت كل الوسائل – أن تتمتع بسعادتها في أن تكون أماً ، أو أن تحتفظ بالأبناء الذين أتت بهم إلي هذا العالم ، فإن التبني يعوضها عن ذلك الحرمان - - -

ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية علي وجه الخصوص ، فالمماليك واليونانيون والعثمانيون والأوروبيون وكافة أبناء الأجناس التي لا تنتمي لهذا الوطن يموتون في العادة دون ذرية تخلفهم ، وذلك إذا ما تناسلوا فيما بينهم ،

أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فإن بمقدورهم أن يتمتعوا بمباهج الأبوة ، دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يتطلعوا إلي أن ينالوا نعمة أن يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد ، ، - - -

---

[٨٨] تأمل هذا المعني لتدرك مدي تعمق علماء الحملة في دراسة الشخصية المصرية المظلومة من وجهة نظرهم

وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه ، بينما يصعب علي الأجناس الأخري أن تستمر علي قيد الحياة في هذه البلاد ، ، وسوف نقدم الدليل علي ذلك في الجدول الآتي عن حالة أهم الأسر المملوكية :

اسماعيل بك : لم يترك إلا بنتاً واحدة

إبراهيم بك : له طفلان علي قيد الحياة

قاضي أغا : أنجب أحد عشر طفلاً ، بقي منهم أربعة علي قيد الحياة

مراد بك ، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير ، الألفي بك ، محمد بك المنفوخ ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوي ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسي ، عثمان بك الطمبورجي ، حسن بك الجداوي ، صالح بك ، إبراهيم بك الوالي ، محمد بك العبدولي ، كل هؤلاء بلا أطفال ، ، محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة علي قيد الحياة

علي بك الكخيا : له طفلة واحدة علي قيد الحياة وكذلك سليمان بك

أحمد بك الكرارجي : لم ينجب أطفال علي الإطلاق ، ونفس الشئ بالنسبة لعثمان بك حسن ، وكذلك سليم بك أبو دياب ، وقاسم بك ، حسن كاشف الشركسي لم يخلف سوي طفل أعمي

محمد أغا : أنجب اثنين وعشرين طفلاً لم يبق منهم علي قيد الحياة سوي طفل واحد ضعيف البنية

ومن هذا نري كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون علي قيد الحياة ضئيلاً ، ويمكننا من جهة أخري أن نعد أسراً أجنبية أخري كثيرة لم تكن بأسعد حظاً من ذلك ،

وهذا دليل علي أن الوطنيين وحدهم في مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل ، ويبدو أن طبيعة المناخ تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة

ملحوظة : ربما يفسر ذلك قيام المماليك بشراء المزيد من المماليك بصفة مستمرة من أسواق الرقيق في ذلك الوقت

<u>إعجاب علماء الحملة الفرنسية باحترام الشيخوخة في مصر :</u>

ورد في الجزء الأول من كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع ما ملخصه :

قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة ، حيث تتوافق الأنانية والمصالح – وهما أبناء الحضارة الشرعيين –مع أضواء المعرفة ، إذا صح القول ، ذلك أن أفق المعارف عند الشعوب كلما اتسع كلما ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغي أن نمضي بهذه الفكرة بحد أبعد من ذلك ، ومع أننا لا ننتوي هنا أن نعقد مقارنة متعسفة ، فإنه ينبغي علينا القول بأن الشرقيين وإن كانوا قد أهملوا تعلم العلوم

والآداب ، فقد استطاعوا علي الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية ، وإلا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذي يكنونه نحو الشيخوخة ؟ ، ويتميز المصري علي وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، - - -- - - وفي مقابل ذلك ، فإن المفكر يستطيع أن ينعي علي الشعوب الأوروبية – التي تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل – هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة - - - ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الافكار التي وردت علي لسان مؤلف كتاب رسائل عن مصر Lettres sur L'Egypte الذي انتقدنا بمرارة وأحياناً تحامل صارم ، وترسم أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب ، بخصوص الشيخوخة :

إن الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقي من الاحترام نفس ما تلقاه في مصر ، بل إنها تكاد تكون في معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغي علي ذي الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفل حتي يمكن تحمله في داخل نطاق العائلة ، فما أن يحس الإنسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، حتي يري نفسه وقد أصبح عبئاً ثقيلاً علي أولئك الذين يدينون بوجودهم له ، يري نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية وأغلقت دونه القلوب ، وترتجف من برودة الوحدة روحه ، أما المشاهد التي كنت أراها هنا في مصر قد اضطرتني أن أقدم لكم النقيض المقابل ، فهنا في مصر ، يبتسم العجوز وهو يلقي الاحترام ، يبتسم برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة – لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يري أربعة أجيال تهرع نحوه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتي آخر لحظة من لحظات عمره ،

وفي واقع الأمر فإن الأوروبيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذي يبلغ مرتبة التقديس ، - - -فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب : المتوحشون البرابرة ، يقدمون لنا في هذا الخصوص مثالاً يجدر بالاحتزاء ، علي أجمل الفضائل ، فكل شئ في كبار السن يفصح عن المهابة والأهمية ، فإذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون في احترام شديد ،

ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن-عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحي بمعني التشريف والسيادة ، والكلمة الأولي في كل العائلات المصرية للأكبر سناً ، - - -

وفضلاً عن ذلك فإن الشرق – الذي نتفق علي أنه مهد الحضارات – كان مسرحاً للتقاليد الأبوية القديمة ، – – وإذا كانت أوروبا هي وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فإن الشرق ، – ومصر بوجه خاص – هو علي نحو ما ، جنة الشيوخ

حمامات الساونا علي الطريقة المصرية كما وصفها علماء الحملة الفرنسية :

تحت عنوان الحمامات العامة كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي :

يمكن أن نحصي أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان علي الذهاب إليها ، وبخاصة في الشتاء ، – – إذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاغتسال في النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فإنه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية ، وهنا يتوجه إلي الحمامات ، حوالي مرة كل أسبوع ، أولئك القادرون منهم ، ليحصلوا بمصاريف زهيدة علي متعة يطمح إليها الفقراء والأغنياء معاً ،

أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحري أولئك الذين يحوزون ثروة كبيرة . فإنهم يمتلكون في بيوتهم حمامات خاصة ، وبرغم ذلك فإن هذا لا يمنعهم من أن يلتقوا بين الحين والحين في الحمامات العامة ، ليروحوا عن أنفسهم فيما بينهم ، – – – – – – – – – – – –

ويوجد بكل حمام مغطس ملئ بمياه شديدة السخونة ، وبعد أن ينتهي المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات ، وطريقة الاستحمام التي تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن في ذلك ، فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله الخدم في الحجرة الأولي حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ، ثم يقاد إلي ممر يشعر وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئاً فشيئاً لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ، ويرقد علي قطعة من قماش صوفي فيقترب منه علي الفور خادم يلبس في يده قفاز ، أو يمسك بفوطه من صوف ناعم ، وعندما يتأكد أن البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف ، يبدأ بأن يطقطق كل مفاصل الوافد وتكاد هذه العملية لا تسبب سوي ألم خفيف تعوضه تلك الليونة التي تحدثها بعد ذلك في حركة الجسم ، ويستطيع الأوروبيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها ، أن يرفضوها بمطلق حريتهم ، وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التي بيده ، ويكون التدليك قوياً لحد يظن معه المرء أن جلده سينفصل عن جسمه ، ويتوالي سقوط خيوط سوداء ، إذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التي كانت عالقة به ، بل إن المسام نفسها تتخلص من أقل شئ يمكن أن يسدها ، وفي أثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقاً في عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلي حجرة مجاورة ليبقي وحده ، ويغتسل بمياه تأتي من عيني مياه إحداهما ساخنة ومياه الأخري باردة ، ثم يرتدي قميصاً ليعود في النهاية إلي الحجرة الأولي ، حيث يقدم له الخادم

وهو جالس علي أريكته النارجيلة وفنجاناً من القهوة ، وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد تعطرت بدخان خشب الصبر ، وترش رأسه وكل جسمه برغاوي صابون معطر ، - - - - ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات وإعداد ماء الورد ، ويحصل عادةً مقابل كل هذه الخدمات علي ما يكفيه ، إذا كان رواده من الأثرياء ، ونادراً ما يكون مكان الاستحمام واحداً بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبني إلي قسمين لكل منهما مدخل مستقل ، وفي الحالة الأولي يخصص لكل من الجنسين موعد خاص ، وتذهب النساء عادةً إلي الحمام في وقت متأخر ، وما إن يدخلن حتي تعلق قطعة من قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور إلي حضورهن ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لأي رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور علي الفور وبدون استثناء خادمات - - [٨٩]

<u>علماء الحملة الفرنسية يصفون الأسبلة في القاهرة :</u>

بالجزء العاشر من موسوعة وصف مصر وفي صفحة ٢١٢ وما بعدها وتحت عنوان الكتاتيب ، الأسبلة ، والأحواض العامة ورد ما ملخصه :

- - - - ذكرت من قبل أن الأسبلة والكتاتيب العامة بالقاهرة ، قد نتجت معظمها عن منشآت -- لأمراء وأثرياء كرسوها لصالح سكان هذه المدينة الكبيرة وراحتهم

وقد لا تكون هناك مدينة في أوروبا تضم هذا العدد من الأسبلة ، ونلاحظ في هذه الأبنية أعمدة الرخام والنقوش الرائعة ، وكذلك حليات من الحجر والبرونز ، ومنها يحصل الناس في جميع الفصول ومجاناً علي احتياجاتهم من الماء الذي يحمل إليها بمشقة بالغة من الفرع الأقرب من النيل ، حيث تصادفنا في الشوارع الجمال المخصصة لهذه الخدمة بدون انقطاع ، وفضلاً عن الأحواض التي يغترف منها الماء بوفرة يوجد في خارج هذه الأبنية سبيل مصاصة يرتشف المارة منه الماء لتخفيف ظمئهم ،

أما الأعمدة التي تزدان بها واجهات هذه الأسبلة فمن المألوف أن تكون قطعاً من الرخام الأبيض نفذت في أيطاليا ، وهي ملساء أحياناً ، وقد تكون حلزونية الشكل أحياناً ، أو ذات شكل مضلع أحياناً أخري ، وكثيراً ما يجمع بين هذه الأشكال ، مع حليات من البرونز الذهبي اللون ، كما أن نوافذ السبيل نفسها مزودة بقضبان من البرونز مشغولة بمهارة ، وعلي الجدران نقوش محفورة تخلد اسم صاحب السبيل ، والأسبلة عبارة عن ثلاثة طوابق ، أولها الموجود تحت سطح الأرض ، وهو عبارة عن خزان واسع تصب فيه قرب المياه التي تحملها الجمال ، أما الطابق العلوي فيرفعه عدد من الدعامات أو الأعمدة ، وهكذا تضم هذه الأقبية عدداً ضخماً من الأعمدة الجرانيتية والحجرية جمعت من المباني القديمة ، ولست أشك في أننا

---

[٨٩] نقلاً باختصار عن كتاب موسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب الجزء الأول من صفحة ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠

لو قمنا بفحصها لوجدنا من بينها قطعاً قديمة بالغة الأهمية ، وعدد هذه المنشآت النافعة كبير وهو يبرهن علي أن روح الإحسان في الشرق أكثر انتشاراً من تصورنا المعتاد ، وسيكون تعداد هذه الأسبلة إطالة مفرطة ، وسأقتصر علي ذكر أهمها وأكثرها فخامة فيما يتصل بالعمارة ، - - - -- - ويبلغ العدد الإجمالي للأسبلة ، أو تلك التي قمت بزيارتها علي الأقل ، مائتين وخمسة وأربعين سبيلاً ، تتميز ببنائها الرائع ، وغالباً ما يعلو السبيل طابق يضم مدرسة مجانية (كتاب) أسسها رجل الإحسان نفسه الذي أنشأ السبيل ، وتحمل اسمه أيضاً ،

١١. الفصل العاشر

تطور العلاقة بين بريطانيا وفرنسا وتأثيرها علي مصر

أعداء الأمس أصدقاء اليوم :

عندما ظهرت قوة بريطانيا وفرنسا علي مسرح الأحداث في العالم كانوا يتعاملون معاً بعداء شديد وخاصة بعد قيام الثورة الفرنسية ودخلوا في صراع مسلح وكان قيام الحملة الفرنسية علي مصر أحد مراحل هذا الصراع وقد أدت هذه الحملة بلا شك إلي الوقوف علي مدي ضعف الدولة العثمانية وبالتالي أدي ذلك إلي أن اكتشفوا شئ أفضل من معاداة بعضهما وأن يتعاونان معاً ضد الدولة العثمانية التي كانت قد ورثت كل الدول الإسلامية السابقة فكانت آخر دولة إسلامية كبري في المنطقة مرهوبة الجانب ولكن كان قد دب فيها الضعف والفساد وكان الطبيعي هو أن يقضي عليها محمد علي باشا ليتكرر ما كان يحدث من قبل وتأتي دولة محمد علي قوية ناهضة فتية وتقود العالم الإسلامي وتتحمل مسئوليته وترث كل الدول السابقة ولكن هذا لم يحدث فقد قررت كل من بريطانيا وفرنسا دعم محمد علي ليكسر شوكة الدولة العثمانية ثم وقفوا بجوار الدولة العثمانية ضد محمد علي فقد كان أمامهما دولتان تحملان القومية الإسلامية دولة محمد علي الناهضة والدولة العثمانية التي تحمل أسباب السقوط وتمضي نحوه فقرروا الوقوف مع الدولة العجوز ضد الدولة الشابة إذا جاز التعبير حتي لا يظهر مارد جديد في المنطقة كما ظهر من قبل علي مر التاريخ في صورة دول إسلامية قوية لا تسمح لهم بالاقتراب من المنطقة وكانت كل محاولات الاقتراب تفشل عندما تصطدم بالقومية الإسلامية ، وعندما قامت الثورة العرابية في مصر قام الإنجليز بالتدخل لصالح الخديوي توفيق وتم القبض علي الزعيم أحمد عرابي قائد الثورة والتنكيل برجالها وتخيل توفيق أنه بذلك حافظ علي عرشه وعرش أسرة محمد علي باشا الكبير ولكنه سرعان ما اكتشف أنه قد فقد السيطرة علي البلاد وأصبح المندوب السامي البريطاني هو كل شئ في مصر

ثم قامت كل من بريطانيا وفرنسا بتفتيت الدولة العثمانية إلي عدة قوميات وساعدت كل قومية علي حدة وقامت بتنميتها وكان أهم ثلاث قوميات في الدولة العثمانية هي القومية التركية والقومية المصرية والقومية العربية ، وحتي لا يختلفا معا علي تقسيم الخريطة العثمانية بعد القضاء عليها اتفقتا علي توزيع الغنائم قبل الحصول عليها

ومن هنا كانت اتفاقية سايكس بيكو والتي بمقتضاها تم رسم خريطة ذات حدود جديدة للمنطقة وهكذا دخلت المنطقة تحت قيادة سادة جدد وفرضت المصالح البريطانية والفرنسية نفسها علي منطقة الشرق الأوسط وانتشرت القوات البريطانية والفرنسية بدلاً من القوات العثمانية ، وإليك بعض ما ورد عن اتفاقية سايكس بيكو التي تمت بين بريطانيا وفرنسا

اتفاقية سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا :

قام وزير الحربية البريطاني كتشنر بإرسال عرض للشريف حسين للتعاون معاً كحلف ضد الدولة العثمانية وقد وصله عرض كتشنر في ٣١ أكتوبر ١٩١٤ عن طريق المندوب السامي البريطاني في مصر آرثر هنري مكماهون ، الذي حثه علي الخروج عن سلطة الأتراك - - وقد قام الأمير فيصل بن الحسين بالتنسيق مع القوميين العرب حيث قاموا بإعداد مخطط باسم بروتوكول دمشق وتم فيه توضيح حدود الدولة العربية التي يجب أن تعترف بها إنجلترا خلال المفاوضات (وفي ١٤ يوليو ١٩١٥ أرسل الشريف حسين رسالته الأول إلي مكماهون - - والتي جاء فيها المطالبة باعتراف بريطانيا بدولة عربية بالحدود المذكورة في بروتوكول دمشق ، والموافقة علي إعلان خليفة عربي للمسلمين ، مقابل أن تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في كل المشروعات الاقتصادية في البلاد العربية) وكانت في هذه الفترة انجلترا وفرنسا لم تصل إلي اتفاق نهائي بعد حول تقسيم الدول العربية بينهما (وبذلك وجد مكماهون أنه لا يستطيع تقديم وعود للحسين قبل أن تتضح الصورة في المفاوضات التي كانت لا تزال مستمرة بين انجلترا وفرنسا والتي انتهت باتفاق الإنجليزي مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو علي الاتفاقية التي تم تسميتها بألقابهما سايكس – بيكو وبالتالي قام مكماهون برد غير حاسم ووعود تشجيعية ولكنها غير محددة

فأصر الحسين في رسالة بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩١٥ إلي مكماهون علي أن مسألة الحدود لا تحتمل المراوغة مما اضطر مكماهون إلي أن يعده في ١٥ أكتوبر ١٩١٥ بالاعتراف باستقلال العرب طبقا للحدود الواردة في رسالة الحسين مع بعض التعديلات البسيطة (وعلي هذا الأساس دخل العرب الحرب العالمية الأولي ، عندما أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة في ١٠ يونيو ١٩١٦) ، وكانت إنجلترا وفرنسا قد وقعتا بالفعل اتفاقية سايكس–بيكو التي علي أساسها تم تقسيم الدولة العثمانية فيما بينهما وهاجمت القوات العربية ثكنات الجيش العثماني في كل مدن الحجاز وفي أقل من ثلاثة أشهر نجح الجيش العربي في الاستيلاء علي مدن الحجاز جميعها ، وبدأت التقدم نحو الشام--- وبعد أن تأكدت إنجلترا من اشتراك العرب في الثورة ومن تورط الشريف حسين في الحرب ضد الأتراك بحيث انقطع عليه خط الرجعة ، سارعت بتوجيه الطعنة الثانية – بعد سايكس بيكو – إلي العرب فأصدرت في ٢ نوفمبر ١٩١٧ تصريح بالفور الذي ينص علي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وهو المعروف بوعد بالفور ، وانتهت الحرب وتم تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو ولم يحصل العرب علي أي شئ وكل ما فعلوه استبدال النفوذ العثماني بالنفوذ الأوروبي ويقول الدكتور طه حسين عن هذا الموضوع

(تبين اليائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من بؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه ، وأي بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبي في حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفي آمالهم ومستقبلهم ، كانوا عبيداً أو كالعبيد لقوم يمتون لهم ببعض الأسباب ، فأصبحوا عبيداً أو كالعبيد لقوم ليسوا منهم في قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم في كل شئ ولا يقاربونهم في شئ)

استقلال مصر عن الخلافة ووضعها تحت الحماية البريطانية :

ثم قامت بريطانيا بعد ذلك بفصل مصر عن الدولة العثمانية بإعلان حاكم مصر من أسرة محمد علي سلطاناً بدلاً من لقب خديوي وهو السلطان حسين كامل وتم عزل الخديوي عباس حلمي الثاني الوالي الأخير والطريف أن عباس حلمي هو آخر والي تابع لخليفة حكم مصر فإذا كان عمرو بن العاص هو أول والي تابع لخليفة حكم مصر فإن عباس حلمي الثاني هو الوالي الأخير وبذلك ولأول مرة منذ فتح مصر تستقل مصر تماماً عن الخلافة ، وحتي عندما استقل بها ابن طولون والإخشيد كانت تابعة ولو بشكل رمزي للخلافة ، وقد يقول القائل ما الفرق فمصر في الحالتين تحت الاحتلال البريطاني سواء كان حاكمها خديوي أو حاكمها سلطان ، ولكن هناك فرق كبير بين أن تغتصب غرفة ضمن وحدة سكنية وأن تحول هذه الغرفة إلي وحدة سكنية مستقلة ذات باب مستقل فأنت عندما تغادرها وستغادرها بالتأكيد في يوم من الأيام ستصبحان وحدتان مستقلتان ولن تعود وحدة واحدة إلي أن يشاء الله ، ثم قامت ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال البريطاني وتواصل الكفاح ضد الإنجليز سواء علي المستوي السياسي بزعامة سعد باشا زغلول أو علي مستوي المقاومة الشعبية التي كان لها تأثير أقوي بكثير من تأثير النشاط السياسي فقد أفقدت المقاومة توازن الإنجليز وجعلتهم ينتظرون الموت عند كل ناصية وقد وضح الدكتور حسين مؤنس دور المقاومة الشعبية وقارن بين تأثيرها وتأثير العمل السياسي في كتابه الممتع دراسات في ثورة ١٩١٩ فوجد أنها كانت أشد تأثيراً مما جعل الإنجليز يُصدِرون من جانب واحد ما يسمي بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذي أعطي مصر بعض امتيازات الحكم مع ضمان احتفاظ بريطانيا بمصالحها وقامت بتحميل الحكومة المصرية مسئولية الأمن الداخلي لتصبح المواجهة بين المصريين بعضهم مع بعض ويأمن الإنجليز علي حياتهم حتي أنهم انسحبوا من جميع المدن المصرية واستقروا في قاعدة عسكرية كبيرة في منطقة قناة السويس بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ ولكن لم ينعموا بالأمان هناك أيضاً حيث واصل الفدائيون أعمال الهجوم علي المعسكرات البريطانية في منطقة القناة حتي أن الإنجليز قاموا بطرد الشرطة المصرية من هناك لإحساسهم بأنها لا تقوم بدورها ضد الأعمال الفدائية وكانت وقعة ٢٥يناير ١٩٥٢ التي أصبحت عيداً للشرطة المصرية بعد ذلك ، واستمرت المنطقة بكل ما فيها من خيرات وموارد تخدم المصالح البريطانية الفرنسية ومن في

ركابهما إلي أن حاولت دول أخري السيطرة علي الأمور في العالم فكانت الحرب العالمية الثانية التي أسفرت عن تراجع دور قوي عظمي وصعود دور قوي عظمي جديدة

اختلال ميزان القوي في العالم :

بريطانيا أيام توفيق تختلف عن بريطانيا أيام فاروق ، تعتبر هذه العبارة إيجاز وتعبير عما حدث في هذه المرحلة من تاريخ مصر فقد تراجع دور بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية وصعدت قوي جديدة هي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ، وعندما قامت حركة الجيش المصري في يوليو سنة ١٩٥٢ (ثورة يوليو) حاول الملك فاروق أن يستعين بالقوات البريطانية لإحباطها كما هو مدرج بالوثائق البريطانية التي تم الإفراج عنها مؤخراً ونشرها الكاتب الكبير محسن محمد في كتابه الممتع سقط النظام في أربعة أيام ثورة يوليو بالوثائق السرية ، ومن هذا الكتاب يتضح أن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت تدخل بريطانيا لإحباط حركة الجيش المصري في يوليو ١٩٥٢ في إشارة واضحة إلي انتهاء دور بريطانيا في المنطقة وبمرور الوقت بدأ انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من منطقة الشرق الأوسط وكان فشل العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ أكبر دليل علي تراجع دور بريطانيا وفرنسا فقد كانت آخر محاولة للتدخل في المنطقة عسكرياُ حيث أدرك الجميع أن للعالم سادة جدد فما فعله توفيق مع الثورة العرابية لم يتمكن فاروق أن يفعله مع ثورة يوليو لأن بريطانيا أيام توفيق تختلف تماماً عن بريطانيا أيام فاروق فكان اختلال ميزان القوي في العالم من أهم عوامل نجاح ثورة يوليو ١٩٥٢

انتهاء قصة بريطانيا وفرنسا :

وهكذا بدأت وانتهت قصة بريطانيا وفرنسا من عداء شديد وصراع مسلح إلي توافق واتفاق علي المصالح وتقسيم الدولة العثمانية فيما بينهما وأخيراً انتهي بهما الحال إلي تراجع تاريخي كقوي عظمي وانسحاب قواتهما من الشرق الأوسط وتسليم راية قيادة العالم إلي قوي عظمي جديدة ، وقبل أن ينتهي هذا الكتاب أود أن أذكر لك عزيزي القارئ ما حدث من تبادل التهنئة بين فرنسا وبريطانيا عندما قامت الأخيرة باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ لتتأمل معي لغة المصالح التي لا تعرف الرفق بالدول الضعيفة التي تحاول الدفاع عن كيانها وكرامتها

كيف قام الإنجليز بضرب الإسكندرية بمباركة فرنسية :

(---- في الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ أعطي الأميرال سيمور إشارة الضرب فانهالت قذائف الأسطول البريطاني علي مدينة الإسكندرية ، كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام ، فتصيب أهدافها إصابات مباشرة أما مدافع الحصون والطوابي المصرية ،

فكانت ضعيفة خائرة متراخية فتسقط قنابلها في مياه البحر ، دون أن تصل إلي البوارج الإنجليزية واستمر إطلاق الحمم حتي قبيل غروب الشمس ، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة وتحويل أحيائها الآهلة إلي أطلال تتراكم فيها الجثث وتنعق البوم بعد أن فر سكانها وهاموا علي وجوههم نحو الريف بحثاً عن مأوي يقيهم نار الجحيم ، كانت مجزرة بشرية رهيبة ، ارتكبتها بريطانيا العظمي عقاباً للشعب المصري لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوروبي الذي تغلغل في أنحاء الديار المصرية وبات يشكل خطراً علي روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطني ، كان حكام مصر من سلالة محمد علي قد فتحوا أبواب البلاد علي مصاريعها أمام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أحط الجرائم ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوي الطبيب الشهير كلوت بك أو القائد العسكري الكولونيل سيف وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدسين في الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرحال طمعاً في الثراء الرخيص وامتهنوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة - -)٩٠ ، - - - وهناك تعليق للمسيو جون نينيه السويسري عن هذه المجزرة البشعة حيث قال (ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أي مسوغ وليس الباعث عليها سوي الشهوة الوحشية المتعطشة إلي القتل وسفك الدماء)٩١ كما أن الأستاذ جمال بدوي علق علي موقف فرنسا من هذه المجزرة (فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الإسكندرية وما تبعها من احتلال عسكري عملاً من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة وكان جواب حكومة لندن علي التهنئة : " إن انتصارنا هو انتصار أوروبي ولو انهزم الإنجليزي لكان ذلك كارثة علي كل الدول التي تحسب حساباً للتعصب الإسلامي ")٩٢ ويضيف الأستاذ جمال بدوي في استنكار واضح (التعصب الإسلامي !! أنعم النظر في هذه العبارة الغريبة حتي يتملكك الغيظ ، بريطانيا العظمي تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة وتري في دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهراً للتعصب الديني أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم وإذلال كرامتهم فهو عين التسامح الديني الذي تريده الدول العظمي !! ، منطق غريب جداً ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع في كل عصر)٩٣

---

٩٠ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٨

٩١ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٩

٩٢ المرجع السابق صفحة ١٠٠

٩٣ المرجع السابق صفحة ١٠٠

١٢. الكتب والمراجع

١ - كتاب منهج البحث التاريخي - د حسن عثمان - دار المعارف - الطبعة الثامنة

٢ - مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية علي مصر - ترجمة وتقديم كاميليا صبحي

٣ - تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١

٤ - تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢

٥ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج٥

٦ - كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي

٧ - مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي)

٨ - الدولة العثمانية (د علي الصلابي)

٩ - موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري)

١٠ - مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري)

١١ - كتاب سيرة القاهرة للمؤرخ البريطاني ستانلي لين بول

١٢ - كتاب صفحات من تاريخ مصر -طبعة يناير ٢٠٠٨ - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

١٣ - موسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب ومني زهير الشايب

١٣. فهرس المحتويات

Contents

1. مقدمة..... ٣
٢. الفصل الأول بريطانيا وفرنسا ومكان المواجهة..... ٥
البر أم البحر :..... ٥
علي متن السفينة ولا يعرفون إلي أين تتجه :..... ٥
نلسون يبحث عن الفرنسيين في البحر :..... ٦
وصف الجبرتي لوصول الإنجليز إلي الإسكندرية : ٧
وقفة تأمل للجهل بالموقف الدولي :..... ٨
ولكن ما هي الأسباب الحقيقية لهذه الحملة ؟..... ١٠
٣. الفصل الثاني بدء احتلال مصر..... ١٣
أولاُ احتلال الإسكندرية :..... ١٣
رواية الجبرتي عن احتلال الإسكندرية :..... ١٤
المنشور الفرنسي للشعب المصري :..... ١٤
٤. الفصل الثالث المماليك والحملة الفرنسية..... ١٧
فكرة سريعة عن تاريخ المماليك :..... ١٧
المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول يصف بعض أمراء من مماليك العصر العثماني :.... ١٨
علي بك الكبير :..... ١٩
المواجهة بين المماليك والجيش الفرنسي :..... ٢١
ما بين معركتي المنصورة (١٢٥٠م) وإمبابة (١٧٩٨م) :..... ٢٢
هل من مبارز ؟..... ٢٢
وصف الجبرتي لاحتلال العاصمة :..... ٢٣
٥. الفصل الرابع نابليون في القاهرة..... ٢٥
رسالة مشايخ الأزهر لنابليون :..... ٢٥

.....٢٥
معركة أبو قير البحرية :.....٢٥
نابليون والاحتفالات الدينية في مصر : ٢٦
فشل نابليون في استمالة المصريين : ٢٧
٦. الفصل الخامس مقاومة الحملة الفرنسية وثورة القاهرة الأولي ٢٩
سلوك نابليون مع المصريين :.....٢٩
وصف الجبرتي لقمع الثوار : ٢٩
إهانة الجامع الأزهر : ٣٠
المشايخ يطلبون العفو من صاري عسكر :.....٣١
رسالة إلي الشعب علي لسان المشايخ :.....٣١
محاولة إثارة أول فتنة طائفية في مصر :.....٣١
الخليفة العثماني يدعو للجهاد : ٣٢
حركة الجهاد ضد الحملة الفرنسية : ٣٣
نابليون والفشل أمام عكا : ٣٤
رسالة نابليون من أمام عكا.....٣٤
معركة أبو قير البرية ورحيل نابليون :.....٣٦
تأملات فيما حدث أمام عكا وسر سفر نابليون فجأة :.....٣٦
تعجب الجبرتي من سفر نابليون في البحر مع تربص الأسطول الإنجليزي : ٣٧
٧. الفصل السادس الحملة تحت قيادة الجنرال كليبر ٣٨
كليبر يحاول التفاوض مع العثمانيين :.....٣٨
معركة عين شمس وثورة القاهرة الثانية :.....٣٨
الفظائع الفرنسية في قمع الثورة : ٣٩
مقتل كليبر وتولية الجنرال مينو القيادة :.....٤٠
الحرص علي تنفيذ محاكمة عادلة :.....٤٠

إقفال الأزهر (بيدي لا بيد عمرو) : ٤١
٨. الفصل السابع الجنرال مينو والأيام الأخيرة للحملة في مصر ٤٢
الجنرال مينو والعبث بالشعب المصري :.....٤٢
الدولة العثمانية تستعين بالإنجليز في تحالف لطرد الفرنسيين من مصر : ٤٢
مينو في الإسكندرية وبليار في القاهرة : ٤٣
استسلام القاهرة قبل الإسكندرية : ٤٣
ملخص عام للحملة الفرنسية : ٤٤
الحملة الفرنسية ودورها في إيقاظ قوة الشعب : ٤٤
٩. الفصل الثامن لطمة حضارية علي وجه مصر.....٤٧
الفجوة الحضارية بين مصر وفرنسا :.....٤٧
عربة يد ذات عجلة أمامية واحدة تبهر الجبرتي :.....٤٧
اللطمة الحضارية :.....٤٨
تعداد سكان مصر طبقاً لتقدير علماء الحملة الفرنسية :.....٥٠
١٠. الفصل التاسع مقتطفات من كتاب وصف مصر.....٥٢
علماء الحملة يدرسون شئون مصر :.....٥٢
من مقدمة كتاب وصف مصر :.....٥٢
إعجاب علماء الحملة الفرنسية بالصناعة المصرية : ٥٣
اندهاش علماء الحملة الفرنسية من التسامح بين الأديان في مصر : ٥٤
جانب من وصف التجارة المصرية بموسوعة وصف مصر : ٥٤
عندما كانت فرنسا تستورد القمح المصري :.....٥٥
وصف علماء الحملة الفرنسية للشعب المصري في ذلك الوقت :.....٥٦
علماء الحملة الفرنسية يوضحون أسباب عدم تكاثر المماليك في مصر :.....٥٧
إعجاب علماء الحملة الفرنسية باحترام الشيخوخة في مصر :.....٥٨
حمامات الساونا علي الطريقة المصرية كما وصفها علماء الحملة الفرنسية : ٦٠

علماء الحملة الفرنسية يصفون الأسبلة في القاهرة : ٦١

١١. الفصل العاشر تطور العلاقة بين بريطانيا وفرنسا وتأثيرها علي مصر.....٦٣

أعداء الأمس أصدقاء اليوم :.....٦٣

اتفاقية سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا :.....٦٤

استقلال مصر عن الخلافة ووضعها تحت الحماية البريطانية :.....٦٥

اختلال ميزان القوي في العالم :.....٦٦

انتهاء قصة بريطانيا وفرنسا :.....٦٦

كيف قام الإنجليز بضرب الإسكندرية بمباركة فرنسية :.....٦٦

١٢. الكتب والمراجع.....٦٨

١٣. فهرس المحتويات.....٦٩